مجلة التمدن الاسلامي

تقدم

نظرة العجلان

في اغراض القرآن

بمناسبات آياته ووحدة الموضوع في سوره

﴿ بقلم ﴾

ابن شهيد ميسلون

محمد بن كمال احمد الخطيب الحمامي

مدير مجلة التمدن الاسلامي

يقدم هدية لمشتركي السنة ١١ من المجلة

ثمن النسخة ٤٠٠ غ.س

المطبعة العصرية ـ دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين *
إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين
أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين .

ص	س	الخطأ	الصواب
١٣	١٢	يردوكم	يردونكم
١٤	١٣	ماانزانا	ماانزل الله
١٥	١٥	الدنيا حسنة	الدنيا
١٦	١١	البؤساء	البأساء ج
١٨	٣	ذلك	ولكم
٢٠	١٦	والمساكين وابن السبيل	والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل
٢٤	١	قدضلوا كثيراً واضلوا	قدضلوا من قبل واضلوا كثيرا
٢٦	١٥	الساعة بغتة	الساعه
٢٧	٩	آمن	آمن واصلح
٢٧	١٧	هدى الله	هدى الله يهدي به من يشاء
٢٩	٢	يغترون	يقترفون
٢٩	٣	انه	كذلك
٢٩	١٧	وما كانوا من المهتدين	وما كانوا مهتدين
٣٠	١٠	فتفرق بكم	فتفرق بكم
٣٢	١٤	يفصل	نفصل
٣٢	١٥	نطن	بطن
٣٤	٨	عفونا	عفوا
٤٠	١٤	نكثوا	نكثوا ايمانهم
٤٢	٣	قلوبهم	قلوبهم وفي الرقاب
٤٣	٦	آمنوا معه	آمنوا
٤٧	٥	الا من بعدما	حتى
٤٧	١٨	يوحي	يوحي
٤٧	١٩	الحاكمين	الحاكمين
٤٩	١٧	وهم لايبخسون	وهم فيها لايبخسون
٥١	٩	تقول	تقول وانا لنراك فينا ضعيفا
٥٣	٢	ان	انه
٥٥	١١	ولواتبعت	ولئن اتبعت
٥٨	٧	ليجزي	ليجزي الله
٥٩	١٤	وان الله غفور رحيم	نبيء عبادي أني انا الغفور الرحيم
٦٦	٩	كانو	كانوا
٦٨	٦	بيونا	بيوتا
٧٠	١١	رغم انا كثرهم	رغم ان اكثرهم
٧١	٣	فان الفللو	الغافلون
٧٣	١٠	« فانجيناه انه طاره	فانجيناه « انه كان
٧٤	٨	كريماً	كبيراً
٨٤	٥	ليحاجوكم عند ربكم	هذه الآية في غير سوره الكهف
٨٦	١٢	الصالحات بان لهم الجنة »	الصالحات « بان لهم الجنة
٨٧	١٧	ولداً	من ولد
٨٧	٦٨	« واذا قضى	« واذا قضى
٩١	١٢	انزلنا	انزلناه
٩١	١٧	تبع	اتبع
٩٢	١٨	فاعليهن	فاعلين
٩٤	١٧	يحي الموتي وان الله يبعث من في القبور	يحي الموتى » « وانه على كل شيء قدير

ص	س	الخطأ	الصواب
٩٥	١٤	طه	الانبياء
٩٧	١	يحكم آياته	يحكم الله آياته
٩٧	١٧	اعتصموا	واعتصموا
١٠٣	٦	بيفات	مبينات
١٠٦	١٤	عبادي ام	عبادي هؤلاء أم
١٠٦	١٨	ياويلتي	ياويلتى
١٠٨	١٦	اعناقهم لهم	اعناقهم
١٠٩	٣	ان الله	وان ربك
١١١	٨	تك	تكن
١١٣	١٨	حتى	و
١١٥	٥	تبعوا	اتبعوا
١٢١	١	بقره	كفره
١٢٢	١١	وانما	انما
١٢٤	١٦	ورسوله وما زادهم	ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم
١٢٦	١٣	يقولون ربنا	يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا وقالوا ربنا
١٢٧	١٧	افترى	أفترى
١٢٨	٩	فوبها	فيهما
١٢٩	٧	الله	ربي
١٣١	٨	اولئك يبور	أولئك هو يبور
١٣٧	٥	سوء	سواء
١٣٩	٦	كفروا بربهم	كفروا
١٣٩	٩	اليك ليدبروا	اليك مبارك ليدبروا
١٣٩	١٤	ذكر	ذكر
١٣٩	١٧	نذير	منذر
١٣٩	١٧	اله الله	اله الا الله
١٤٢	٧	الي اجل	لأجل
١٤٦	٧	الارض انت	الارض عالم الغيب والشهادة انت
١٤٧	١٣	قابل	وقابل
١٥٠	٢	التي خلت	التي قد خلت
١٥٠	٣	المبطلون	الكافرون
١٥١	١٧	لايسام	لايسأم
٦٣	١١	«ولكن لو	ولكن لو «
١٧٦	١٤	لهم	لكم
١٨٤	١٥	ويبسطو	ويبسطوا
٢٠٦	١٦	تنذر	منذر
٢١٧	١٥	تجعل	نجعل
٢٢٢	١٠	« واقرأ	وواقرأ
٢٢٤	١٠	فرف	ذرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم الاستاذ الشيخ مصطفى الزرقا
استاذ الحقوق المدنية
في معهد الحقوق العربي بدمشق

ان القرآن العظيم - وهو حجة الاسلام ومعجزة رسوله الخالدة - قد وصفه من انزل على قلبه صلى الله عليه وسلم وصفا خالداً بقوله : (لايخلقه طول الرد ، ولا تنقضي عجائبه) اي انه جديداً أبداً على تكرار التلاوة لايشعر الانسان فيه بما يشعر من سأم الشيء المعاد ، وهو ايضا مبعث لكل بحث واكتشاف ، لاتنفد معرفة مافيه من حقائق واسرار ، لانه صادر عن بصر الخالق بمخلوقاته ، وبسنن كائناته ، وواقع امر الماضي ، ومايتوقع من امر المستقبل .

وهو على كثرة ماخدم علماء السلف الكرام من مباحثه والمعلومات التي تتصل به لن تنتهي حاجة العلم الى اكتشاف آفاق جديدة من البحث فيه هي اشبه بآفاق هذه الارض كلما سار الناظر الى ناحية منها شوطا وجد وراءها افقا جديداً .

وكلما ازداد الفكر البشري نضجا وبصيرة ، وسجلت له تجارب الكون وحوادثه نقطا جديدة في الخط البياني للعقل الانساني أدرك من حقائق القرآن العظيم مالم يكن يدرك ، شأن الطفل في المعارف التي تحيط

به، كلما نمت مداركه اتسعت وسمت معرفته بحسب قابليته للفهم

والقرآن العظيم قد احاط بكل مايحتاج اليه البشر من فنون الهداية وصلاح الحياة ، والعبر والامثال ، والنظم الاجتماعية، وحقائق الكون وقضاياه الكلية الكبرى، لأن معرفتها على وجه الصواب هي من وسائل الهداية لمن يبتغيها بتجرد وتطلع اليها ، وذلك الى جانب مافيه من اسس التشريع العلمي الصالح ، وجانب من تفاريعه .

وبذلك يكون القرآن قد استوعب كل مايتصل بغرضه الاساسي وهو الهداية، وما تتوقف عليه .

وهذا في الحقيقة معنى قوله تعالى : « مافرطنا في الكتاب من شيء » ، لا كما يفهم بعضهم من هذه الآية ان الكتاب قد استوعب بطريق الصراحة او الاشارة جميع العلوم الخاصة وما فيها من تفاريع وجزئيات المباحث ، فهذا من البعد عن معرفة غرض القرآن، وخروج به عن هذا الغرض الى مجاهل التعسف ، فالقرآن الكريم ليس سجلا للعلوم الخاصة وقواعدها ، وانما هو كتاب لهداية الانسان الى خالقه والى العمل الصالح اللائق بسمو البشر، والى طرائق هذا العمل ، وهو سجل لجميع ماتتوقف عليه هذه الهداية من المعارف وحقائق الكون ونظمه وسنن بارئه فيه ودلائل الخير والشر، مع الاسس العملية للعبادة الصالحة المهذبة ، والتشريع العملي والاحسان في الحياة الاجتماعية.

وهو في غرضه هذا لم يفرط في شيء ولم يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.

وهذا الكتاب الذي يضمه اليوم مؤلفه الكريم الى مجموعة المباحث المتعلقة بالقرآن هو خطوة جديدة في خدمة ناحية قرآنية لم تفرد بعد بالبحث، فهو يحاول ان يكشف فيه عن جهة من اهم جهات البحث، وهي: وحدة موضوع السورة وتناسب اغراضها وتسلسلها، فهو يرسم في كل سورة مخطط موضوعها وعناصر مباحثها كما يرسم الكاتب اليوم في موضوع ماعناصر بحثه ثم يفيض في معالجتها متنقلا من عنصر الى عنصر ضمن حدود الموضوع في مختلف شعبه واغراضه، وبتعبير آخر: انه يبحث عن التناسب بين مجموعة واخرى من الآيات في كل سورة.

وهذه ناحية بكر بالنسبة الى طريقة الاستاذ المؤلف، وإن كان المفسرون قد تناولوا بالذكر المناسبات الفردية بين الآيات عند تفسيرها، وهو ايضا ماعني به البقاعي في تفسيره الذي استهدف فيه مناسبات الآيات، وهو من المخطوطات التي اشار اليها الاستاذ الخطيب في مقدمته، غير ان البحث عن وحدة موضوع السورة، والربط بين عناصر هذا الموضوع في زمر الآيات هو ماتتجلى به هذه المعالجة في هذا الكتاب، والاستاذ المؤلف الاخ السيد محمد

الخطيب حفظه الله معروف لدى جميع اخوانه بصفاء التأمل النفساني وحسن التحليل في الشئون العلمية والاجتماعية ، ودقة النظر التميزي. وان له في هذا المؤلف فضيلة اخراج هذا الموضوع الجليل المفيد الى حظيرة التأليف المستقل ، مضافا اليه دقة التحليل والملاحظة ، وقد يرى القاريء احيانا في بعض مجاليه شيئا من الغموض او طيا لبعض نواحي هامة من عناصر موضوع السورة وخاصة عنصر التاريخ والقصص ، وذلك ناشيء عن ان المؤلف حفظه الله لم يتيسر له ان يعيد تلاوة الآيات الكريمة بتوسع في التأمل اذ هدفه ان يرسم الآن اعجل صورة في كل سورة باوجز عبارة ، ويحيط بالعناصر الاساسية دون الفرعية .

ولعل تأملاته المستقبلة في آي الذكر الحكيم - (بما رزقه الله تعالى من هداية طيبة كانت اكبر عون له على فهم اساليب القرآن ، ومن فرط حسن وقوة ادراك وبصر علمي) - تطلع علينا بعد هذه العجالة بكتاب اوفى واكفى في هذا الموضوع ، وله الشكر بما اخذ على نفسه من خدمة هذه الناحية الجليلة ، من القرآن الذي تكفل الله تعالى بحفظه بما يسخره له من رجال يقومون بدفع الشبه عنه ، وخدمة رسالته ، والسلام .

كتبه في دمشق : في شعبان ١٣٦٥ مصطفى احمد الزرقا .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

القرآن الكريم كتاب الاسلام يؤمنون بانه من وحي الله تنزل على محمد بن عبد الله خاتم رسله وانبيائه ، قرأته ناشئاً وتلوته متعبداً ، ونظرت فيه متدبراً ، فكنت اتنقل في السورة من سوره بين مشهد وآخر ، في مقطع بعد مقطع ، بل في آية بعد آية ، واحياناً في شطر منها بعد شطر ، وهو في ذلك يبدو رائعا في انسجامه ويتنقل بسببه من تحدث بلغة الفرد الى الجمع ومن مخاطب الى غائب ومن تصريح الى تلميح ، الى مايتصل بذلك من اساليب القول بحيث يراعي فيها المعنى بمراعاة أثره في نفس قارئه الذي انزل القرآن لهدايته ، ولكن الصلة بين المشاهد والاغراض قد تخفى على النظرة العاجلة فلا يدري قاريء صلة آية باية ، وقد هجس في خاطري من ذلك شيء مررت به في ختم وانا اربط النظر بين ذلك ؛ فكنت مبتدئاً من البقرة اقرأ واكتب مابدا لي من اغراض القرآن واجلت النظر في الفاتحة فقلت ادع لها الكلمة الاخيرة التي تؤيد نظري ان تحقق ، فكان الامر على ذلك ، وكان نظري في ابتدائه متواثباً يظهر الاغراض التي تبدو رئيسية في السورة دون ان ادخل في تفاصيل معانيها فضلا عن ارتباط آية باجزائها الى ان ازدادت المناسبات بين الآيات وضوحا لعيني ، فكنت اتبع الطريقة الاولى حيناً والثانية اخرى حسب نشاطي ووقتي وأسجل في كل سورة ما استجد لي من ملاحظة تبدت عند قراءتها من بعد ماسبقها الى ان تم ذلك ، فجاءت الملاحظات متفرقات ، وأبقيت ما كتبته على ما كتبته ليكون في كل سورة فوائد مستجدة شعت منها ، وجعلت الحديث عن السورة بعد السورة على ترتيب القرآن المشهور دون التفات الى ملاحظة

النزول بمواقيته واسبابه لما رأيته من تناسب بين سورة وسورة تناسب آية بعد آية اطمأننت معه الى قول القائلين بان ترتيب السور كان توقيفا من الله على الشكل الذي ارتضاه، ولاسيما اذ لم اجد الترتيب على ماقيل من طول السورة وقصرها ظاهرا، فيارب سورة كالاحزاب مثلا جاءت بعد سور اقصر منها، وما كان الترتيب بحسب النزول لينظم عقده، لان السور غالبا لم تنزل كاملة بل كانت منجمة في فترات متقطعة.

وقد جاء قولي في اية اشبه بتفسير وفي اخرى اقرب الى التعليل، حتى تبدو المناسبة وتتضح الوحدة في القصد الذي سيقت اليه والغرض الذي تنتهي اليه، وكنت مبتعدا عن التأويل مستعينا بتفسير الامام البيضاوي، وما انتهيت من ذلك حتى وقع لي كتاب السيوطي (الاتقان في علوم القرآن) فنظرت فيه ملياً، وتثبت مما رأيت، وتوثقت مما كتبت، وفيه فصل دقيق بما انا بصدده، ورجعت لنفسي استبين مصدراً لتبني هذا الموضوع الخطير فذكرت جملة قرأتها تعليقا للاستاذ الجليل المرحوم مصطفى صادق الرافعي في بحثه عن (الجمل وكلماتها) في كتابه اعجاز القرآن فاذا هي الامنية وقعت آنئذ في نفسي لواستطيع ان اطلع على كتاب كهذا الكتاب، واذا هي الخطوة الاولى الى هذا اللباب وبقيت اتلو واتلو الى ان هديت الى ماهديت اليه وما انعم الله به ولكل ناظر سبيل حين يسعى بهدى من الله بين يدي قلبه وعقله وربه، وقد نشر من بعد ذلك الاستاذ الشيخ محمد احمد دهمان مقالا عن الامام برهان الدين البقاعي وتفسيره في مجلتنا التمدن الاسلامي فرجعت الى مخطوطه في المكتبة الظاهرية، ورأيت من مقدمته عناء مابذل من سنوات تابع فيها التأليف، واذا به يكرر ويطيل ويقع فيما وقع فيه ابن خلدون في مقدمته وهو يشعر انه لم يسبق الى صنعه، يشعر بجلال الموضوع ويتجه اليه اصدق الاتجاه وهو فرح مسرور فيكرر ويطيل تاكيدا لما اتاه وبرهانا بعد البرهان عليه، وكنت في حال لاتمكن معها من ادامة النظر، والبصر

اعياه البصر ، والح السقم، حتى قنعت بمواقف من كلمات وتبيان لمناسبات من آيات كنت اراها محل عقدة ونظر فاعياني الامر ايضا وقنعت بما كتبت وقلت لعل الله يجعل فيه خيرا ، ولو نزل منه منزلته من الايجاز والايمان من الاعجاز

ومن حسب الامر هينا بعد الاطلاع عليه فلينظر في سورة او آية في مثل مطلع النساء والانفال والاسراء وليفكر وليقدر ثم لينظر ما استبان له حتى اذا عرف مواطن الدقة ادرك آنئذ من تعبيد الطريق قيمته باشارة او اعادة او اضافة علة او كلمة مقدرة او تفسير او تأويل .

فان كان في هذا الغير في فائدة فتلك نعمة من الله علي وعليه والا فحسبي ان كنت وانا اكتب ايقظ حسا وادق تاملا حتى اتضح لعيني ما كان مبهما ، ولله الحمد على هداه انه الرب الرحيم

• • •

ان السورة الواحدة تلاحظ فيها غايات ثلاث: اولاها موضوع تدور حوله ثانيها مؤمن يتحدث اليه بما فيه هدايته ثالثها مقتضى حال يدور بين اسباب النزول وداعية القول وما بين ذلك من السببين الآنفين ، والسورة بذلك قريبة الشبه معانيها بالخطبة التي تستهدف السامع ، والمقالة التي تنشر على القارئ والمعاني بين آية وآية يتمم بعضها بعضا بحسب المقاصد الآنفة ولا ينساق الحديث مع الاستطراد الا بمقداره المقبول في حدوده من مقتضى القول واساليب البيان والبلاغة، وفي هذا ما يكشف عن وحدة الموضوع في السورة انكشافها في القرآن جملة باعراض محدودة واضحة مفصلة تسلسل بين آية وآية كما يحكم الصلة بين كلمة وكلمة وتجلي ما يغمض لاول وهلة من تناسب الايات في السورة الواحدة او يبدو في كلمات من آية تنتقل من معنى لآخر تدق بينهما المناسبة، وهي تجري بما يلائم الاوضاع النفسية والحكمة الهادية والبلاغة العربية ادق الملاءمة، وللقرآن في ذلك سبيله المعجز وبيانه المحكم وهو للعالمين هدى ورحمة « فيه ايات بينات » « لقوم يعقلون »

فاتحة الكتاب الحكيم

سبع آيات مستهلة بالبسملة والبسملة آية تدور في كل سورة الا التوبة، وقد جاءت في سورة النمل بمكانها آية، وقيل بصدد عدم ورودها في صدر التوبة ان هذه البسملة مشتملة على الرحمة والامان والتوبة سورة تنبذ للمشركين عهدهم وتوعدهم وهي كلمة فصل بينهم وبين المؤمنين، فلم تبدأ بما لا يناسب ذلك إذ تذكر (الله) باسم ذاته وتتناول الرحمة من [صفاته] وتثني [بالحمد] لمكانه من [خلقه] بانه « رب العالمين » مكررة وصفه انه « الرحمن الرحيم » تثبيتا للمعني وتنويها به زيادة تأتي مع التكرار بتأثيره في نفس القاريء، ثم اتت بما يكني عن عزيز سلطانه بقولها: « مالك يوم الدين » خلق الخلق وشملهم بعين الرعاية فحفظهم ورباهم وكانت الرحمة صفته الاولى والاخيرة بينه وبينهم، لقوته وضعفهم وسلطانه وعجزهم الى ما هنالك من تناظر بين الخالق والمخلوق، وهو تعالى لمكانته الذاتية وصفاته كخالق رحيم يستوجب العبادة، وهو مأمن الاستعانة، لذلك اشفع التقرير الذي أتت به الآيات الآنفة متحدثة عن الله بما علم به الانسان ان يقوله ليعين بالنسبة الى الله مكانته الانسانية فقال بلغة العبد الذي عرف ربه

« اياك نعبد واياك نستعين » فالعبادة لله لمكانه الايجاد اولا والرحمة بعد الوجود ثانيا والمنقلب اليه بعد الحياة اخيرا ، هذا فضلا عن حق المعرفة لذاته ومايستوجبه (كماله) «ليس كمثله شيء»

وانتقل من تحديد مكانة الانسان وتعليمه وفاء حقها بالنسبة لله الى التنويه بما فيه من ضعف النظر لتكوينه الذي صور عليه في حياته ، بما علمه ان يطلبه من [الهداية] بنوره تعالى الى صراط مستقيم لاعوج فيه ليسلكه مع من ظفروا بنعمة الهداية والسعادة ممن ظلوا ثابتين لم ينكصوا على اعقابهم معاندين فيكونوا من «المغضوب عليهم» ولا من الذين اخطأهم القصد فكانوا من « الضالين »

هذه هي السبع المثاني وهي بجملتها سورة الخالق والمخلوق تنوه عما لهما من صفات تحدد الذات وما بينهما من مفارقات وصلات بالنسبة للمعنى الانساني المطلق الدائر مادارت الحياة في معانيها الخالدة من وجود وعدم وحياة وموت ودنيا وآخرة وهدى وضلال كل ذلك بلغة خالصة السبك تتهاوى من دونها لمع التأمل واناشيد المناجاة بفهم صحيح للحياة فيها تحديد لموقف الانسان بين الطبيعة والله

وهي من القرآن الكريم فاتحته وفيها جملة اغراضه وعلى معانيها تدور السور في وحدة الغرض الذي تساق اليه، وما المعاني التي تتابع فيها الايات في موضوعات متباينات (كما تبدو للناظر دون معرفة اغراض

القرآن) الا فروع لغرض واحد تأتي عليه كل سورة ، فتستقل ببسملة دلالة على استقلالها بمعناها وموضوعها وان القرآن لتتشابه سورة تشابه المخلوقات وحياة الانسان ومظاهرهما وما الى ذلك من هدى وضلال وخير وشر وحق وباطل، فمن عرف اغراض القرآن الاصلية في الفاتحة عرف وحدة الموضوع في كل سورة. وان في اسم السورة والآية التي اشتقت غالباً منها ومكانة هذه الاية من اغراض السورة ومعانيها نقطاً ترتكز عليها وجهة الناظر في موضوع السورة مما كان يقتضي ان اعود لتلاوة القرآن على هذا الاعتبار متأملا كرة اخرى لم اجد لها من الوقت متسعاً والدنيا باحداثها وفتنها عن العلوم والتأملات صارفة هذا فضلاعن ارتباط النفس بموضوعات تستجد لها فتملك عليها فراغها وهي تسعى وراءها كل يوم في افق جديد من دنيا المعارف التي لاحد لها، وما المعاني في الموضوع الواحد إلا فروع ، فاعرف الجذع تلمس مكانة الفرع.

ان اسلوب الخطاب يقصد الهداية قبل كل شيء وفيه مراعاة للجملة المعترضة استدراكا لمعنى يتم به المعنى وقيداً يحدد قصداً أو يكون استطرادا توفى به المناسبة * وفي ذلك مايكشف عن المناسبات بين الايات في موضوع يتحدر من معنى يكون نظاما في السورة

الواحدة ثم يكون نظاما في القران على الجملة .

وان القرآن بجملته تفسير لسورة الفاتحة بتفصيل مجملها، و كل سورة اخذت معنى منها ، وربما اشتبه قول بقول واجتذبت مناسبة مناسبة، وهي في القرآن على نظام مطرد ترى فيه اغراضا مجملة ثم مفصله في زمرة من السور بعد زمرة تتبينها فيما لو اتخذت مثلا غرضا من اغراضه الرئيسية مداراً لهذا الاعتبار لتعريف الانسان بخالقه ومكانته كمبدع خلاق لما في الطبيعة مما تجده متكررا في معاني متجددة ومناسبات لوفاء المقصد داعية باساليب منوعة تدور في كل بضع سور مفصلة ، وفي ذلك ماتراه فتعرف له شبها بمقطوعات فلسفية وروائع ادبية فيها روح المعاني القرآنية الجامعة لدعوة الايمان وتاويل آيات خالق الاكوان وحياة الانسان في الدنيا بنعمها ومصائبها والرسالات الهادية وحيا من الله مثل سورة ق ، والرحمن ، والحديد والتغابن ، والملك ، والانسان والنبأ فضلا عن مقاطع ولا سيما في المطالع من السور او خواتيمها مثل خاتمة آل عمران وماتراه في يونس والرعد والحجر والنور والنمل ويا سين

---

* من الامثلة التي توضح هذا المعنى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ان ذكر القران مجلسه وما كان عليه القوم وفيهم يستمع اليه ممن طبع الله على قلوبهم فلا يستفيدون ، فانه اتبعهم بحديثه عمن قابلهم من الذين اهتدوا « وزادهم هدى وآتاهم تقواهم » ، ثم رجع بعد هذا الاستطراد للاستدراك وتوضيح المرامي والمعاني الى اتمام القول فيمن طبع الله قلوبهم فجاءت آية المؤمنين كالجملة المعترضة

والزمر والجاثية، وقد تجتمع المعاني المتشاكلة في زمرة واحدة في سور متلاحقة وهذا الأعم الاغلب كما في الحواميم حتى ليتجلى ذلك من اسماء السور نفسها، وان سر الاعجاز في القرآن ليبدو في مطاوي مافيه من ايجاز وتفصيله الى جانب حفظ النسبة بين اسباب النزول للآيات وتتابع المعاني فيها لاغراض واحدة على تمادي الايام التي نزل الوحي فيها على محمد رسول الله (ص) وان يكون ذلك دستوراً للانسان ما اختلفت الاعصر والامصار ومهما تبدل شأنه وارتقى علمه وتهذب فنه وسما نظره، حتى ان القول الواحد في الآية الواحدة ليتخذ في كل عصر معنى يبدو منه كما تبدو وجوه من وجوه بين آباء وابناء تتجلى فيها معاني الانسانية الخالدة، ففي القرآن الكريم سر كسر الطبيعة وهما من مشكاة الله، وعلى ذلك تأتي نظرية تكشف عن حقيقة ثم تتبعها نظرية اخرى تكشف عن حقيقة ثانية فيطمئن اليها الانسان ويظل سائراً في طريق رقيه دون ان يفسد عليه تناقض نظريتيه ما فهم من قرآنه، ليظل القرآن هو هو ترجماناً من «الرحمن» الذي علم «الانسان» و«لا تبديل لكلمات الله» مصداقاً لقوله فيه «انزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفوراً رحيما» (الفرقان ٦).

ولقد نظر في القرآن الذين فسروا قوله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» تفسيراً شاملاً لأدق الامور من العلوم والفنون

والمعاش والمعاد ، وما يمكن ان يصل اليه فهم الانسان فاذا بهم يستنبطون مايمكن أن يعتبر دائرة معارف لاتفلت صغيرة ولاتهمل كبيرة، ولكنهم ركبوا من ذلك شططاً، لان الانسان لم يبلغ من ذلك كماله وحد النهاية ، فاضطروا في مواقف الى تأويل كانوا عنه في غنية ، واصبحنا نفهم المعنى فهما لاحاجة معه الى تفسير فضلا عن تأويل ، ولكل زمان عقله ومستوى فهمه ، ولعل من يلحق بنا يرى منا مارأيناه ممن سبق .

ان اغراض القرآن تبدأ بالتعريف بالخالق بمكانته من المخلوق ، وإن المخلوقات في هذا النظر، طبيعة ونظامها ودنيا واخرتها وانسان بين وجود وعدم وحياة وموت، فتفاصيل المعاني التي اوجزتها « الفاتحة » وفصلتها السور التالية تجعل للقرآن مابين الله والطبيعة والانسان صلة بكل علم وفن ولكن من حيث هداية الانسان لاعلى ان العلم والفن مقصودان لذاتهما، فاذا ألم الناظر في علم وجد ان مافي القرآن من علم يثبته ويؤيده ، وقد يجد في القرآن مايكشف له عن نظرة تكون محلا لرقي في علمه، ومع ذلك يظل القرآن كتاب هداية يرى العلم غرضا من جملة بينما الانسان هو الغاية .

ان موضوعات القرآن تحيط بالحياة احاطة ما أراه من السماء بالارض وهي آيات هدى منير تجتمع في سور واجزاء على نحو من مجموعات

الاجرام العلوية في مواقع مقدرة محكمة ، وفي تأمل الناظر ماتصفو به نفسه حتى ينتهي الى التسبيح باسم ربه ، وفي ما المعنا اليه بهذا الصدد وجه التشبيه ، وحكمة القسم ومناسبة الآيات في قوله تعالى « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم » وقوله « فلا اقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم » وقوله « انه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين » وقوله: « ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم »

فليتنا عرفنا كلمة الهداية وصلة الانسان بخالقه ووفاء العبودية له، ولكن الانسان طلعة وهو على حد قوله تعالى « وكان الانسان اكثر شيء جدلا » فاللهم من بعد تطواف هداية تصل البدء بالخاتمة، كما تصل الدنيا بالاخرة وهما منك في قبضة و« الحمد لله رب العالمين »

البقرة (السورة الثانية تبحث عن « الايمان » بذكر صفات اهله ومن يقابلهم من الفاسقين المفسدين بصفاتهم (حتى الاية ٢٠) ثم فيها خطاب للناس بان العبادة لمن خلق الخلق ودعوة للايمان بالقرآن الذي يتحداهم بسورة، وينذرهم بالنار، ومقابلة ذلك بالمؤمنين وما ينالون ، وان الله لا يستحيي من ضرب الامثال فيسعد بالعبرة فيها مؤمن ويضل بها فاسق ينقض عهد الله كمخلوق له هذا الى ابداء التعجب من كفرهم عن خلقهم من بعد موت كما خلق السموات والارض وكان من ذلك ان قالت

الملائكة فيهم بأنهم يفسدون في الارض ، فقال تعالى لهم « إني اعلم مالا تعلمون » وقد «علم آدم الاسماء كلها » فعرفها وعجزوا حتى امرهم سبحانه بالسجود له تعالى بالتوجه الى هذا المخلوق (آدم) الذي نهاه عن اكل الشجرة (فطغاه ابليس) واخرجه مما كان فيه مع زوجه (حواء) ، ثم استغفر فتاب الله عليه « قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ثم اتى على ذكر نعم الهداية ضاربا المثل ببني اسرائيل كانموذج لبني البشر وهدايتهم وما يعرض لهم بين الكفر والايمان (حتى الاية ٤٠) وانتقل من عرض مادعوا اليه وما كان منهم الى دعوتهم للاسلام والايمان بما نزل على محمد (ص) ومن ثم خاطب المسلمين مبينا نعمة وحسد الكافرين ولاسيما من الكتابيين الذين ساءتهم دعوة إلهية جديدة حتى «ود كثير من اهل الكتاب لو يردوكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ماتبين لهم الحق » مع ان الشرائع تتابع بل قد ينسخ بعضها بعضا لياتي سبحانه « بخير منها او مثلها » ثم تعرض لذكر النصارى واليهود وخصومتهم معا وموقفهم من الاسلام في دعوته ثم اتى على ذكر ابراهيم (ص) وايمانه وتوارث ذلك في ابنائه وابتنائه البيت العتيق [الكعبة] وانتقل الى اختياره قبلة للاسلام قائلا بالنتيجة « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات

اين ماتكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير »
(١٤٠ - ١٤٨) ثم خاطب المسلمين بوجوب الاستمساك بما هداهم اليه
وحثهم على الصبر وعدم التململ مما يصيبهم من القتل في سبيل الله لان الجهاد
قوام الحياة، واتى على ذكر بعض شعائره كالحج ونبه الى ان الهدى الالهي
يحرم كتمان الكتاب، تعريضا باهل الكتاب من اليهود الذين يكتمون
الكتاب مع معرفتهم بصدق دعوة الرسول (ص) واتى على ركن
الاسلام الاساسي بوحدانية الله الذي خلق السموات والارض
وانتقل الى ذكر من « يعبدون من دون الله انداداً » والذين
يتبعون في الايمان ماكان عليه آباؤهم وكان المعنى بين ذلك دائراً على
لباب الايمان بما يدعو الاسلام اليه مما يتضح بقوله تعالى « ياايها الناس
كلوا مما في الارض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه
لكم عدو مبين (١٦٨) ثم نهى عن اتخاذ الهداية مطية رزق لما في
ذلك من فساد « إن الذين يكتمون ماانزلنا من الكتاب ويشترون به
ثمناً قليلا ، اولئك مايا كلون في بطونهم الا النار ، ولا يكلمهم الله يوم
القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم »(١٧٤) ثم ذكر البر الذي
دعا اليه راسما خطوطه الاساسية بقوله « ليس البر ان تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة
والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » وخاطب المؤمنين بعد ذلك بما كتب عليهم فذكر القصاص والوصية والصيام وخص بالذكر رمضان قائلا: «شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن » [١٨٥] بابتداء الوحي فيه او بنزوله الى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ منجما باوقات متفرقة على الرسول الاعظم [ص] او ان القرآن نزل في رمضان منوها بفضله وصيامه فقد «انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » بعد ان نوه بصلة الصيام بالتقوى وانه مما امر الله به الامم الخالية لهذه المزية بقوله :«ياايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * اياما معدودات» ذاكرا انه «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» ولاسيما في الصيام واتم بعد ذلك ماهو بسبيله كبعض احكام الصيام مستطردا من صلته بالطعام الى تحريم اكل مال الايتام ثم ذكر الحج والقتال في الاشهر الحرم وعند المسجد الحرام وختم ذلك بقوله «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وما له في الآخرة من خلاق» ومنهم من يقول « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار * اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » [٢٠١-٢٠٢] وذكر ايضا صنفين من الناس

قائلا : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا [وشؤونها] ويشهد الله على مافي قلبه وهو الد الخصام * واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد * واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » (٢٠٤-٢٠٧) وخاطب بعد ذلك المؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة بطاعة الله فان الكفار يرتقبون رقبة الامهال يوم الحساب بعد ان آتاهم الله آيات بينات توجب الايمان به ، فاحبوا الحياة الدنيا وهم « يسخرون من الذين آمنوا » وما كانت البعثة والوحي الا لخير الناس والحكم بالحق بينهم فآمن من آمن ، ولذلك وجب الصبر في سبيل العقيدة « مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البؤساء والضراء » وذكر بعد ذلك الانفاق والقتال وما سألوا الرسول عنه كالخمر والميسر ، وذكر نكاح المشركات وافاض في الحديث عن الحياة الزوجية وما اليها خاتما ذلك بقوله « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٢٤٢) واعاد الكرة على الجهاد ذاكر بني اسرائيل اذ دعوا اليه وما كان منهم وختم ذلك بقوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وانك لمن المرسلين » (٢٥٢) ثم ذكر الرسل وما فضل به بعضهم على بعض واعاد الكرة على الانفاق في سبيل الله) واتى على ذكر نفسه تعالى وانه لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد

من الغي»، وانتقل الى ذكر ابراهيم والذي حاجه في ايمانه بالله (نمرود) قائلا «ان الله يحيي ويميت» ثم كر على الانفاق في سبيل الله وافاض في ذلك ونهى عن الربا وذكر بعض الاحكام بالمداينات وختم ذلك بقوله: «لله مافي السموات ومافي الارض وإن تبدوا مافي انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» (٢٨٣-٢٨٤) وانتهت السورة بما آمن به الرسول واخوانه واتباعه وبين ان تكاليف الله بحسب سعة الانفس «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» ومزجه بأنموذج من المناجاة الالهية بالدعاء والاستغفار وطلب النصر وختم بذلك السورة.

فسورة البقرة بدء ومنتهى مرتبطة بما يتسلسل بينهما مع تداعي المعاني المتفقة في وحدة السبب او الغاية او المناسبة، ولعل فيها اكثر ما في القرآن من معتقدات واحكام وقصص وعبر، وبقية السور تبحث في ناحية ناحية على الطريقة ذاتها هذا بعد ان كان في سورة الفاتحة لباب القرآن بغاية الايمان وصلة العبد بالرحمان في دنياه واخراه وما يرجوه من هداية.

آل عمران بعد البقرة: تبدأ بذكر الله وكتبه والكفر بها والايمان ثم تتنقل بين هذه المعاني وما يتصل بها وتجعل المعنى الاصلي دائرا بين ذلك خاصة بين اهل الكتاب والاسلام، ويأتي على قصة آل عمران ومريم وزكريا وعيسى والحواريين وابراهيم وصلة الرسل

بخاتمهم وما أخذ به العهد عليهم «اذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم [كناية عن سيدنا محمد (ص)] لتؤمنن به ولتنصرنه قال: أأقررتم واخذتم على ذلك إصري؟ قالوا: اقررنا قال: فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين» ثم نوه بدينه الالهي الذي انزله على رسله انه الدين الفطري وقد اسلم اليه «من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون» (٨٣) وانه «من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين» وان من عناصره الاصلية الايمان بما انزل الله على رسله جميعا منذ آدم، وذكر بعد ذلك الكافرين بما ينتظرهم في آخرتهم وانتقل الى ان البر لباب الايمان مفيضا بما يناسبه من انتقال الى احلال الحلال وتحريم الحرام ثم ذكر بني اسرائيل وما احل لهم في التوراة من الطيبات وانهم افتروا فيها على الله الكذب بتحريفهم ما انزل اليهم مبينا ان ما يدعو الاسلام اليه بنقاء الفطرة في صفاء العقيدة انما هو على طريقة ابراهيم (ص) الذي بنى الكعبة، وعاد الى معالجة اهل الكتاب بالحسنى وذكر تفرقهم وافاض في ذلك وما يتوقع ممن يريد منهم بالاسلام سوءا من الذين «ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» (١١٩) بعد تمييز المؤمنين الذين قال فيهم: «ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويامرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » (١١٣ - ١١٤) ثم ذكر بعض المواقع في الدفاع عن الاسلام كيوم بدر وأن على الناس ان يعتبروا بالتاريخ وما وقع فيه مما يدل على قوانين المجتمعات في الحياة «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وثبت قلوب المسلمين في دفاعهم وذكر وقعة أحد وافاض في ذكر الجهاد وذكر المنافقين وما كان منهم يوم احد وثم نوه بالشهداء «الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل» (١٧٧ يه) وخص بالذكر البخلاء عن الانفاق من فضل الله واليهود الذين قالوا : «ان الله فقير ونحن أغنياء» وبين عنادهم ونبه المسلمين قائلا : «لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور ، وان الله اخذ الميثاق بنشر دعوة كتابه المنزل وانه «لله ملك السموات والارض» وفي خلقهما «واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب * الذين يذكرون الله ، ويدعونه ويؤمنون به ويرجون الآخرة ممن وعدهم الحسنى وختم السوره قائلا : «لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد» (١٩٧) وان للمتقين الجنة «وان من اهل الكتاب

لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم ، وما أنزل اليهم ، خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، اولئك لهم اجرهم عند ربهم ، ان الله سريع الحساب» وختم ذلك بما يستلزم دعوة الايمان من صبر وتقوى يرتجى معهما الفلاح قائلا : «يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»

فكانت خلاصة سورة آل عمران في بدئها وختامها واضحة المعنى تدل على وحدة الموضوع فيما ترمي اليه من افاضة في معنى من المعاني التي وردت في سوره البقرة بموقف اهل الكتاب من دعوة الاسلام وما يجب على المسلمين في ذلك وتأتى من بعدها سورة النساء

النساء : سورة تجري على هذه الوتيرة مبتدأة بدعوة الناس الى التقوى وهي تذكرهم بخلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، ومن ذلك اتصلت بذكر الارحام والايتام والزواج والوصاية على السفهاء واحكام الميراث وما الى ذلك من الاحوال الشخصية المتصلة بالاسرة حتى الآية (٣٥) وانتقل بعد ذلك الى العبادة لله والاحسان للوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ، واتسع فيما يتصل بذلك من الاخلاق بالانفاق والنهي عن الخمر في مرحلته الاولى باجتنابه عند الصلاة وما

الى ذلك مما يتصل بالهدى ، و تنقل منه الى قوله: «ألم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون ان تضلوا السبيل » وافاض بذكر اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه »

وتنقل بين الايمان والكفر والدعوة الى اطاعة الله ورسوله ومن ذلك الى التعريض بالمنافقين والثبات على الايمان والقتال ذيادا عنه وأفاض في ذلك وأعاد الكرة على المنافقين وتوسع في القتال وحكم قتال المؤمنين، والهجرة حفظاً للدين وبين صلاة المجاهدين وانتهى من ايفاء هذا المعنى الى قوله : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا * ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا »(١١٤ - ١١٥) وافاض فى هذا المعنى خاتما قوله « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » (١٢٤) ورجع بعد ذلك الى ماسئل عنه الرسول ص في النساء ويتاماهن فاجاب عن ذلك بما يناسب الايجاز وعمم القول باتقاء الله وطلب مثوبته ودعوة الكتابيين الى الايمان بدينه وكر على المنافقين ، وتعنت الكتابيين الذين سألوا الرسول ان ينزل « عليهم كتابا من السماء » قائلا ان من قبلهم من سأل موسى اكبر من ذلك ان يرى الله،وذكر من شأنهم ماذكر من موقفهم من دعوة

المسيح واخذهم الربا وما الى ذلك من العقيدة والدين الالهي الذي اوحى به الى الرسل جميعا ودعا الى الحق وختم ذلك بقوله: «فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله، واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا» ورجع الى الاجابة عن استفتاء في ميراث الكلالة فكان بذلك خاتمة السورة مرتبطا بمطلعها اوثق ارتباط في وحدة موضوعها ومن بعد ذلك المائدة

المائدة: سورة استهلت بخطاب المؤمنين ان يفوا بالعقود وهي العهود الموثقة، فتعم عقود المعاملات بين العباد كما تعم المواثيق بين المؤمنين وربهم فيما اوحى به اليهم فامروا به من ايمان وحلال وحرام، وخص من بينها بالذكر تحريم الصيد مع الاحرام في الحج وامتد القول الى الحلال من الطعام، ثم خاطب المؤمنين بما فيه قوام دينهم (كما كان في الطعام قوام بدنهم) من صلاة ووضوء واغتسال وتطهر باقامة العدل، ونوه بنعمة التقوى وميثاقه لبني اسرائيل فيما امرهم به وانه تعالى لعنهم لنقضهم له وذكر ميثاقه للنصارى وانهم «نسوا حظا مما ذكروا به» ثم دعا اهل الكتاب للايمان بالكتاب المنزل على سيدنا محمد (ص) «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم» (١٦) ثم اتى على ما كان من اهل الكتاب وبعض

معتقداتهم وما كان منهم ومن قولهم « نحن ابناء الله واحباؤه » وما كان من تمرد قوم موسى حتى ابتلوا بالتيه اربعين سنة ، ثم تلى نبأ بني آدم إذ قتل احدهما اخاه، وان هذه السنة كانت سببا لما كتب على بني اسرائيل من الحدود والقصاص بالمماثلة ، ونص على جزاء المفسدين في الارض من قتل وقطع وتغريب وختم ذلك بقوله « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون». «٣٥» وبين ماينال الكافرين يوم القيامة، وذكر عقوبة السارق ثم عطف على الرسول ودعوته الكافرين وما هم عليه « سماعون للكذب أكالون للسحت » واتى على ذكر بعض احكام الحدود في التوراة و« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ؛ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » فيما نسخ من احكامه « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات » وان الحكم لله ليس حكما جاهليا « ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » (٥٠) ثم ذكر علائق الكتابيين بالمسلمين وان الولاية لله ورسوله والمؤمنين وانهم حزب الله لهم الغلبة ثم وجه للكتابيين خطابه الكريم قائلا : « هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل» (٥٩ ودعاهم لاقامة كتابهم المنزل عليهم وافاض في هذه المعاني وما اليها بمناقشتهم بما ادخلوه من فاسد المعتقدات قائلا : « لاتغلوا

من قبل وأضلوا

في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا كثيراً وأضلوا عن سواء السبيل (٧٦) واعاد الكرة من ذلك الى خطاب المؤمنين ان «لاتحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ، وان «اتقوا الله» وبين لهم بعض احكام ألزمهم بها ، وخص من ذلك الصيد مع الاحرام وان الله «جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » ... (٩٦) وانه «لايستوي الخبيث والطيب » وأن لايسألوا عن اشياء يستلزم سؤالهم عنها جواباً يكون في السكوت عنه يسر لهم دفعاً للتزمت والتغالي لما يلازمها من حرج لايسر فيه .

وذكر الوصية وعاد الى ذكر ابن مريم [ص] وما انعم به عليه وما كان من حواريه وطلبهم مائدة من السماء تكون لهم آيه تثبت ايمانهم ، وانهم تغالوا من بعده وان ليس له جواب عنهم يجيب به ربهم الا قوله « إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » [١١٧] وأن لانفع يوم القيامة إلا للصادقين في ايمانهم ممن رضي الله عنهم اذ « لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير »

فهذه السورة تدور حول موضوع [العقد] مع الله فيما اوجب من عقيدة وما أحله وحرمه بمواثيقه و كتبه المنزلة مع تبيان بعض أحكام تدور حولها تسلسل معانيها فى دائرة لها وحدة موضوع من

حيث معنى [العقد] الذى استهل به السورة وهكذا فان مواضيع القرآن في وحدتها تتصل بكليات أعم من بحوث تقسمها في اعتقاد وعبادة ومعاملة ونحو ذلك ،فهي أعم وأشمل، كالعقد والهداية والايمان الى مايتصل بذلك مع مراعاة اسلوب الخطاب بصفته الشخصية،فتارة يوجه الخطاب للناس مثلا دعوة الى الايمان وتارة يوجهه الى من أخذ بدعوة الايمان ثم ضل عن سبيله كما في سورة المائدة التي جعلت القول مع الكتابيين في دعوة القرآن ونقاشه واحكامه فكان في ذلك وحدة موضوع هذه السورة

وهذه الطريقة هي التي تجعل للقصة الواحدة مناسبات مختلفة تدور حول معان تتشابه حتى لتأتي بالآيات والعبارات الواحدة وتختلف بما تساق اليه من مناسبة فتوجز في ناحية وتسهب في أخرى او تأتي لمقصد دون آخر،ومن بعد ذلك سورة الانعام

الانعام: سورة تستهل بحمد الله «الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور»منتهية الى صفة الخلق وإحكامه والهدى واحكامه «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» رغم ذلك فلا يؤمنون الايمان الصحيح ولا يتبعون ماانزل اليهم وهذا موضوع السورة وما وراء هذه الاية إيضاح لما انطوت عليه أو تفصيل تدعو اليه المناسبة لايفاء القصد حقه ، فقد ورد بعد ذلك انه الخالق من طين لهذا الانسان الذي كان من ابنائه فئة الكافرين ، وأنه كما أحيا يميت

ثما قدر من آجال للناس بافرادهم والحياة بمجموعها « ثم انتم تمترون » رغم واسع سلطانه تعالى وتفرده بوحدانيته وأنه « يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » ولكنه الاعراض عن الله وهو من اسباب اهلاك من سار قبلهم على هذه السنن من الامم الخالية، ثم صور عنادهم وما كانوا يطلبون من الايات ليؤمنوا، وعاد تعالى للافاضة بما ذكره من صفته كخالق، رازق، رحيم، وخاطب رسوله بما يثبت فؤاده ويعلم غيره سبيل الهداية، وكر على المعاندين من الذين قال فيهم « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » وأنهم سيرجعون الى ربهم فيسألهم عما هم فيه من لجاجة فانهم فيها هذا المصير « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » ؟ (٣٢) ثم لاطف الرسول الذي كان يحزنه عنادهم قائلا فيما قاله « انما يستجيب [لدعوتك يا محمد] الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون » (٣٦) ثم كر عليهم ايضاً بتذكيرهم بان الامر بيد الله فاذا نزلت بهم نازلة فلا ملجأ الا اليه بالدعاء تسليما واستعانة به « قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة بغتة، أغير الله تدعون » ؟ وان سنة الله توجب العذاب ليذكر الناس ربهم رحمة بهم « ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون » (٤٢) ولكن قساوة القلوب تحول دون ذلك لما يزينه الشيطان، فان بلغ الامر هذا الحد

فلم يعودوا الى ربهم تائبين أخذوا (بعدان أمهلوا) بغتة يقطع الله بهادابرهم، تلك سنة الله في الامم الخالية «فلما نسوا ماذكروا فتحنا عليهم ابواب كل شيء، حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »(٤٣-٤٤) ورجع بعد هذا الى ما أوجده وهو قادر على أخذه مما يوجب ذكر الله وعدم الغفلة عنه باهمال شرعه الذي أريد لخير الحياة وأهلها ، «قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به، انظر كيف نصرف الايات ثم هم يصدفون »(٤٦) لكنه لا يهلك الا الظالمون «وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين، فمن آمن فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وعاد الى خطاب الرسول (ص) بوجوب الانذار وتألف الانصار وعبادة الله وان يقول للذين يستعجلون عذاب الله الذى ينذرهم به مايقطع به عليهم الحجة وان «لكل نبأ مستقر »فلا يخض معهم في مجالسهم الفاسقة وان يستمسك وصحبه بما هدوا اليه ويقيموا الصلاة ويتقوا الله «وهو الذي اليه تحشرون»، فيقيم العدل بينهم بما يثيب به المحسن ويجزي به المسيء، وانتقل بعد ذلك الى نقاء الفطرة في العقيدة بذكر ابراهيم (ص) وما اتضح له من براهين انتهى بها مطمئنا الى الايمان بالخالق وما اثابه الله به فجعل من ذريته من اكرمه بالنبوة «ذلك هدى الله ؛ ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون»، «٨٩» وان على الرسول (ص)

ان يقتدي بهداهم بالسير على هذا النهج اللاحب؛ وعادالى جدال الذين ماروا بما انزل على الرسول من اليهود،وان مرد الجميع الى ربهم «فالق الحب والنوى»«فالق الاصباح»ونوه ببعض آياته فيما خلقه وانعم به على العباد فكان دليلا على وحدانيته ووجوب الخضوع له كخضوع الكائنات جميعاً مما مر به قبلا ثم كر على معتقدات المشركين وعرض ما كانوا عليه مفنداً معتقداتهم قائلاً لرسوله(ص)«وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله،ان يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» «وأن الله أعلم بالمهتدين» فيقيم العدل يوم الدين« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين » (١١٧) فانتقل من المعتقدات والجدال عنها الى الحياة وقوامها واحكامها فكان بذلك وفاء المعنى حقه بحسب النظرة الالهية التي تريد الهداية والخير للناس في حياتهم الدنيا والاخرة ،دون تفريق بينهما كما يتوهم العامة واشباه العامة، فهما حلقة تتمم حلقة ، والبحث بهما شطر يتمم شطراً،وبهذا الاعتبار يتجلى دقيق الصلة بين موضوع وموضوع ومعنى ومعنى وآية وآية بل ولفظة ولفظة حتى في الصيغة والجرس والنبرة اذا لوحظ اثرها في النفس التي تتدبر القرآن وتسير مع معانيه وتفهم مراميه وتدرك اغراضه ، وهذا مايتضح من تعاقب المعاني في الايات فقد رجع مما احل من الطعام الى ماحرم من الآثام وبين القصد بقوله « وذروا

ظاهر الأثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » (١١٩) ثم رجع الى الطعام قائلا : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » وهلم جرا و « انه زين للكافرين ما كانوا يعملون » فيحسبون انهم على سواء السبيل وهم في ضلال مبين يودي بهم، وختم ذلك بقانونه الاجتماعي في هلاك الامم بتبيان اسبابه بقوله: « وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » وان الدعوة للهداية عامة مبذولة لمن شاء الخير لنفسه « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » (١٢٥) وافاض فيما يناسب ذلك بما سيصيب المعاندين ولا سيما يوم القيامة قائلا « ان ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين » وكر عليهم ببعض ما افتروا به على الله من فاسد المعتقدات بتحليل وتحريم في قسمة الاموال بالباطل فقد « جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً، فقالوا: هذا لله بزعمهم [فهم ينفقونه بالبر كاكرام الضيف] وهذا لشركائنا، مما افتروا به على الله من الاوثان التي ألهوها، وانتقل الى عادة المشركين قتل اولادهم، وتنقل بين ذلك وجمع المقصدين بقوله: « قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم، وحرموا ما رزقهم الله، افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا من المهتدين » (١٣٩) وذكر بعد ذلك ما يناسب المقام مما خلق من رزق وثمر ونباتات وحيوانات وعاد

على ما احلوه وحرموه افتراء على الله وذكر ما احل الله من الطيبات وما حرم من قبل اليهود تبيانا لنسق احكامه وفساد ما افتراه المشركون في ذلك وناقشهم مبينا امهات فضائله :«قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ،ولا تقتلوا اولادكم من من املاق نحن نرزقكم واياهم،ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق،ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون* ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده،واوفوا الكيل والميزان بالقسط «لا نكلف نفسا الا وسعها ،واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون*وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون(١٤٨ـ١٥٠) فجمع في ذلك لباب دعوته فيما كان ينبه اليه مفرقا في هذه السورة بمناسباته بتبيان الحق في شريعته ذاكرا امهات مفاسد المشركين ناهيا عنها،قائلا بعد ذلك ان هذا القرآن هدى من الله ورحمة للمؤمنين اذ انزل التورات ثم اتم به الشريعة بما اوحى به من بعد موسى فجعل القرآن خاتمه لئلا يقول الناس ولاسيما العرب عند ربهم غدا !«انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا،فنحن غافلون عن ذلك لم نعلم به وانه لو اوحي الينا لكنا «اهدى منهم «ففي ما جاء به محمد(ص) «بينة من ربكم وهدى ورحمة،فمن اظلم ممن كذب

بآيات الله وصدف عنها» (١٥٤) وأتم هذا المعنى وختمه بان في هداية الله صراطا مستقيما «ودينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين» (١٥٨) وانه كان عابدا لله وحده غير مشرك به واليه المرجع في الآخرة «وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم [ابتلاء مختبر يثيب ويعاقب] ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم» (٢٦٢). ومن بعد ذلك تأتي سورة الاعراف

الاعراف : مبتدأة بذكر القرآن ووجوب تبليغه انذارا وذكرى برحابة صدر لما في مجافاة ذلك من هلاك «وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا بياتا اوهم قائلون» (٦) وهذا معنى من المعاني الواردة في السورة السابقة اريد وفاء حقه بايضاحه بهذه السورة كما هي الحكمة في السور المتتالية حتى يتمم بعضها بعضا بمقاصدها جميعا من صفاء العقيدة والاخذ بالهداية لما فيه نظام الحياة ومثوبة الاخرة؛ وقد ابتدأ القول توصلا لهذه العناية بالخلق منذ بدئه، فذكر آدم والجنة واستكبار ابليس عن السجود له ثم وسوسته لآدم وزوجته حتى اخرجهما مما كانا فيه فاستغفرا فغفر لهما وقال لهما تعالى «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين» وان فيها حياتهم وموتهم وبعثهم، وان الله انزل عليكم ما يصلح شأنكم فيها لباسا يواري سوآتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون»

(٢٦) فانتقل من اللباس المادي بنعمته الى اللباس النفسي بكماله وما فيه من خير باتقاء مانهى الله عنه مما يعود بالضرر والشر على العباد في الدنيا والآخرة، وهكذا سبيله بفهم المعاني والاحاطة بها وتبيان الصلة بين المادة والروح فيها، وكلاهما عند الله سواء بما يعودان على المرء من خير وشر تجب بينهما هدايته ودعا تعالى بعد هذا بني ادم الى البعد عن فتنة استهواء الشيطان الذي اخرج ابويهم من الجنة مبينا انه «يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» محذراً من تعلل أهل الكفر والفحشاء بانهم يتبعون ما كان عليه اباؤهم حتى ليزعمون أن الله أمرهم بذلك «قل ان الله لا يامر بالفحشاء، أتقولون على الله مالا تعلمون» (٢٨) فجعل المعيار في ذلك ما يأمر به الله، وفي كل وحي وكل دين وذكر جملة ما أمر به ونهى عنه من شؤون الدنيا والاخرة تبيانا لما يأمر به الله بقوله «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون» (٣٣) وذكر هلاك الامم ومصير آخرتها بين الجنة والنار بوصف حال اهل كل منهما وان الله لم يظلم منهم احداً في ذلك بعد ان نبههم، «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على

علم «هدى ورحمة لقوم يؤمنون » ٥٢) وانهم سيندمون فيتمنون ان يردوا الى الحياة ثانية ليعملوا صالحاً إن لم يكن ثمة أمل بشفاعة ، ولكنهم لايجابون « قد خسروا انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون» (٥٣) وذكر بعدذلك الخلق للسموات والارض قائلا: «ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعاً ان رحمة اللهقريبمن المحسنين » (٥٦) مبينـاً نعمتهفي خلقه بعدما أسلف القول في خلق الانسان الاول وما دعاهم اليه رحمة بهم وهداية، مذكراً بان الدين يقوم فيما يقوم به على وفاء العبادة له كخالق له حق العبادة يجب ان يكون بتمامه من هاتين الظاهرتين النفسيتين:الخوف من عقابه ، والطمع ولا سيما بحسن الخاتمة في الاخرة ، وبذلك جذب الانسان من عنان لذاته وآلامه عما يسره وعما يخشاه مما يبين الدين وثيق صلته بالنفس وغرائزها، ثم اتى على اتمام ماكانبدأبه من الخلق بايجاد الدنيا وسكانها والاخرة والهداية اليها وإهلاك الغافلين عنها بذكر الامم الغابرة قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيباذ ذكر كل قوم منهم عما دعوا اليه من صلاح واصلاح وما اهلكوا به من من استكبار وعتو وبعد عن الحق والخير والهدى ، وفيه تكرار للدعوة بنصوص الفاظها تبين غاية القرآن من تكراره وطريقته في ذلك بسيره مع المعنى الذي يسوق القول بصدده ، فقصة آدم وخلقه

وردت في البقرة بسياقها ثم جاءت هنا في معرض آخر، واذ لم يتبدل الموقف ولم يقتض المعنى تغييراً في اللفظ كان اللفظ بنصه، وكذلك في دعوة الرسل الذين ذكرهم في هذه السورة، وفي ذلك تبيان لصلة الاديان الالهية بروحها ووحدة غايتها، وختم ذلك بما يتم المعاني الآنفة من اهلاك الامم بفسادها واخذها بالرغبة والرهبة بما يُسرها ويلذ لها ويسوؤها ويؤلمها جريا مع الغريزة التي تبلغ من النفس مبلغها فقال تعالى: «وما ارسلنا في قرية من نبي الا أخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء [وكأنه حديث خرافة غابر لم يعتبروا به فلجوا في الغواية] فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون» «ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون» (٩٤-٩٦) واتى على ما يناسب هلاكهم ليحذر الناس فذكر قصة موسى (ص) باسلوب مسهب مستفيض من قبل ان يأتيهم ومن بعد مجاءهم ليكون للعبرة تاريخ امته واضحاً باطوارها ومصائرها مع تبيان الاسباب الداعية، مبيناً خلال ذلك الاداب والاحكام الالهية كقوله تعالى: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرن في الارض بغير الحق، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها، وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل الغي يتخذوه

سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة حبطت اعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» (١٤٥-١٤٧)

وهكذا تخلل ايراد سيرهم ما يناسب معنى كل مرحلة يأتي القرآن عليها، وما انتهى من ذلك بعد ان اوجز سيرة من مضوا من قبل مبيناً بذلك المراحل الانسانية باخطائها حتى عاد على بني الانسان جميعاً يذكرهم بان الدعوة الالهية قائمة بالفطرة مغروسة في النفس، وان تقليد الآباء والاستكبار والغرور مدعاة اجتناب الهدى وسبيل الهلاك، وذكر دعوة الاسلام ورسولها بعد ان نوه بها في مناسبة سابقة خلال ما اورده، فرد على المشركين الذين جافوه وما افتروا به عليه فرجع بذلك من التعميم بشأن الانسانية الى التخصيص بتذكير العرب قائلا: «أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة» ؟ «أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء» ليروا في هذه الحياة مكان الدعوة، ومن هذا الخلق بنظامه ما يجب ان يعرفوه عن الله الذي أوحى بذلك، ورجع الى تبيان سبب الاشراك بعد تقليد الابناء آباءهم الى باعث الشرك في نفوس آبائهم من افتتان، وذكر الاوثان وما يعبدون من دون الله، مبينا انها ليست اهلا للعبادة، وانتهى من ذلك الى تنبيه الرسول مذكراً له في بشريته وما يجري عليها من حكم

الانسانية من حيث معاني الهداية والغواية كبشر أوحي اليه ليكون الاسوة الحسنة فيما يدعو اليه ، فقال له تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » (١٩٩-٢٠٠) مبينا قانون ذلك بقوله : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون * وإخوانهم [اخوان الشياطين بضلالهم] يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » (٢٠١-٢٠٢)

وذكر عناد المشركين ، ونبه الى وجوب الانصات تدبراً لما يتلى من القرآن الكريم الموحى به أملا برحمة الله بالاخذ بدعوته ، ورجع الى الرسول يخاطبه بما فيه خطاب امته بما ختم به السورة بقوله: « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين * ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه وله يسجدون » فالملائكة يوفون العبادة حقها فما دعوة الله للبشر أن يعبدوه الا لخيرهم الذي يعود عليهم بنتيجة ذلك بالصلاح لدنياهم ثم لآخرتهم.

فسورة الاعراف تقوم على معنى الانذار وتبليغ الدعوة وما في ذلك من حياة طيبة ، وهذا هو موضوعها بدء وخاتمة وما بين ذلك .

الانفال: تأتي بعد الاعراف مستهلة بالسؤال عن حكم غنائم الحروب

فكان شطر الآية سؤالا وجوابه وشطرها الاخر بما استوجبته الحالة النفسية من هذا السؤال ، فكان القتال ثورة غضب واعتزاز بقوة لابد من كبح جماحها فيما يجمع شمل الامة الواحدة ، وسبيل هذا تقوى الله واصلاح ذات البين واطاعة الله ورسوله، وهزوتر الايمان في هذا الخضوع وانه من مقتضياته،وهذا ماانصت عليه الآية الاولى وأتمت الغاية منها الآيات الثلاث المتلاحقة ، فوحدة الموضوع بين الايمان وعباداته واخلاقه وبين السؤال لايظهر الا بمكان الامر به من حيث النتائج في نفس الانسان وصلتها بالهداية التي يرمي اليها القرآن،هذا بحسب الناظر سطحياً لمعنى كل آية بل للشطر منها موضوعاً يستقل عن الاخر فتفوته هذه الوحدة ، كما تفوته في السورة الواحدة ،ولما أتم مارمى اليه من معاني الايمان وهداه رجع الى مايتصل بموضوع القتال وما يرجوه المسلمون من نصرة الله وأتى على مواطن الحكمة الالهية في الشكل الذي وقعت عليه معركة بدر وافاض في هذا حتى الآية ١٩ ثم رجع مذكراً بالاطاعة والثبات وحسن الايمان وجمع الكلمة ونعمة الله بالنصرة والتحول من السكون الى زخارف الحياة قائلا : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون * ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون » (٢١-٢٢) فنبه بذلك عقولهم بهزة بيانية حيوية تري الانسان مكانته في الحياة بفضل عقله

واعتباره وسمعه وتدبره ، وبين قيمة الايمان بحفظ المجتمع بقوله : «استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ..» «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» ذاكراً ان ما يفرهم في الحياة ويستغويهم منها إنما اراده الله فتنة يختبر بها اعمالهم ومن وراء ذلك الاعمال الخلاق واعان ، وتخلل ذلك ما يرافق الايمان من حياة تسودها رعاية الله وعنايته بصيانة الحياة مع الانعام بالطيبات من الرزق ، واظهر في ذلك قانوناً عاماً من قوانين الايمان التي تبقي بقاء الحياة بقوله : «ياايها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم» وذكر مؤيداً ذلك بما تآمر به القرشيون على الرسول [ص] يوم الهجرة ، وهي المرحلة التي سبقت يوم بدر ، وما كان من صدهم للدعوة في عناد لا حجة معه ، ذاكراً ما كان منهم من عبادة باطلة ، وانقياد في سبيل غي سيكون عليهم حسرة ، معلناً عليهم القتال ذياداً عن العقيدة ، ودفعاً للفتنة ، وإعلاء لكلمة الله ، مبيناً احكام الغنائم في وجوب إنفاقها بما فيه تبيان بواعث الجهاد والاهداف التي ينظر الاسلام اليها من خلالها ، وسيره من بعد المعركة ، وذكر يوم بدر ونصرة الله للمسلمين وما يجب عليهم من ثبات ووحدة كلمة وبعد عن سيرة المستكبرين من اهل البغي والقتال رياء وسمعة كالمنافقين وما ينالون من عقاب كآل فرعون «ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على

قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم » (٥٣) واتى على بعض أحكام القتال لنا كشي العهد ومن لا يؤتمنون لخيانتهم، داعياً الى اعداد العدة للعدو واليقظة والجنوح الى السلم ان جنحوا لها بغير خديعة، مثبتاً قلب الرسول ومن معه بوحدة كلمتهم، مبيناً لهم الحد الذي يجب معه الثبات في القتال للقاء عدوهم عند تفاضل القوى بينهم، ذاكراً الحكم في الاسرى ولا سيما بعد بدر اذ اطلق الرسول سراحهم ملطفاً من وقع الفتك والاسر بتبيان مقصده وقوله: « يا ايها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما اخذ منكم، ويغفر لكم، والله غفور رحيم * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم والله عليم حكيم » (٦٩-٧٠) وذكر صلة المؤمنين على اختلاف طبقاتهم بعضهم ببعض ووجوب الولاية والنصرة « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » رعاية للعهد وحفظاً للميثاق، وأن اهل الكفر انصار بعضهم اولياء بعض وان في الاخذ بهذا الاعتبار ومقتضياته واجباً « إلا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير» (٧٣) وختم السورة باهل الايمان والجهاد والهجرة والنصرة ومن سيلحق بهم وانهم امة واحدة كأسرة غير ان ذلك في حق الدين، اماما وراءه بمثل التوارث فالحكم للنسب «وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء

عليم» (٧٥) وبذلك ختمت السورة ومن بعدها سورة التوبة .

التوبة وتسمى البراءة ويرى بعض العلماء أن ربما كانت هي والانفال سورة واحدة وهما كذلك من حيث الموضوع وارتباط معانيه، سورة لها استقلالها واسمها استهل بغير بسملة لما في البسملة من ذكر لصفات الرحمة التي لا تناسب مقام نبذ العهد وإعلان القتال والعذاب الاليم للذين نكثوا ونكلوا «واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله ... الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم، ان الله يحب المتقين» (٣-٤) ذاكراً طويتهم التي أوجبت ذلك بقوله «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون (١٠) فالتنكيل بهم دفعاً لما ظهر منهم وما هم بسبيله من اعتداء لا يراد منه اكثر من ايقافهم عند حدهم «فان تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين، كأن لم يكن منهم شيء من الايذاء لأن الاسلام يجب ما قبله وينقض الطرف عنه «وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر» وهكذا يتدفق المعنى حماسياً ثائراً يتخلله ما يليق بالاسلام ودعوته الى السلم والتقوى والأخذ بما فيه بما يثير حماسة المسلمين المؤمنين هذا الى نقاش المشركين بما قالوا من أنهم يعمرون البيت الحرام الى ما يتصل بذلك من المبادىء كقوله «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم

واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان، ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون» (٢٣) وذكر بما في اجتماع الكلمة من قوة على ان لا يغتر المسلم بالاتكال عليها فقط كيوم حنين (وهو من الايام التي اعقبت بدراً الذي ذكرته السورة السابقة) «إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين» (٢٥-٢٦) وحرم على المشركين الاقتراب من الكعبة المشرفة، وعمم مبدأ القتال وذكر ما افسده بعض الكتابيين توحيدهم حتى أصبحوا «يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» وذكر من رؤسائهم من غرهم المال فصدوا عن سبيله وأكلوا أموال الناس بالباطل مما سيعاقبون عليه «يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم..» (٣٥) وذكر بعد ذلك القتال والاشهر الحرم التي كان القتال فيها محرما عند العرب قبل الاسلام وأعاد الكرة مهيجا مجلجلا قائلا «إلا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه: لا تحزن ان الله معنا» مما كان يوم الهجرة النبوية من مكة الى المدينة المنورة وذكر ضعفاء العزيمة والمنافقين وموقفهم من القتال وسيرتهم تجاه الرسول (ص) ودعوته ومطمعهم بالصدقات حتى ليتهمونه بها تأبها «فان اعطوا

منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ، وقد بين وجوه الانفاق بقوله : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٦١) فأتم المعنى الذي عرض له وأتم من بعده ماهو بسبيله من تعداد المنافقين وطبقاتهم وما كان منهم ومخافتهم من الفضيحة « يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم ، قل استهزؤا إن الله مخرج ماتحذرون » وحذرهم عاقبة اعتزازهم بقوتهم واموالهم واولادهم وأن ذلك لاينجيهم من عذاب الله ، وذكرهم بالدليل بايراد بعض الامم الخالية ممن اهلكهم بظلمهم ، مزاوجا بين المعنى والمعنى في آية تقابل آية بما يتم به القول وفي الموضوع حقه ، فبعد ان ذكر المنافقين « بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم » (٦٧) ذكر المؤمنين قائلا : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » (٧٢) وهذا من طريقة القرآن يجري عليها باسلوبه البالغ في النفوس الى المكانة التي تفي بالغاية من دعوته لمن كان ملماً باللغة العربية وبيانها ، وأفاض بالتعريض بالمنافقين وماسيصيرون اليه وخاصة مايتصل بقعودهم

عن القتال مبينا أن ليس كل قاعد ملوما ان كان من فقر او مرض وان هذا النفاق أجلى في أهل البدو لخشونتهم وقساوتهم على ان منهم المؤمنين حقاً، مبينا طبقاتهم ، وذكر بعد ذلك من خطة المنافقين اقامتهم مسجداً اتخذوه «ضراراً و كفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله » (١٠٨) ناهياً عنه وذكر ثواب المجاهد وصفات اهله وأنه « ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ماتبين لهم انهم اصحاب الجحيم »(١١٤) مستدركا ان ابراهيم (ص) استغفر لابيه آزر وفاء لعهد سابق قبل معرفته « فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه » ان ابراهيم لأواه حليم »(١١٥) ذاكراً ماهو بصدده من الايمان والجهاد والهداية مختتما السورة بما يلقاه الرسول من عنت قومه وما عليه ان يأخذ نفسه به من العبرة والاتكال على الله بقوله « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم *فان تولوا فقل :حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ، فموضوع هذه السورة بجملتها الدعوة الاسلامية ونصرتها والكفر والنفاق ، والجهاد والايمان ، وما الى ذلك مما يناسب المقام

يونس :سورة مستهلة بما يناسب ختام التوبة من ان الكتاب كتاب الله والداعي إليه موحى إليه من عنده، أفعجبوا أن يكون ذلك على

رجل منهم «أكان للناس عجباً أن اوحينا الى رجل منهم ..» حتى قال الكافرون: «إن هذا لساحر كذاب» (٢) وانتقل من ذلك الى مايوحي الايمان في نفس الانسان ويوجبه عليه من ذكر الخلق بنظام السماء والارض والوفاة في الدنيا والنشوء في الآخره ونظام الحياة بافلاكها وآيات الله الدالة على عنايته بخلقه وحكمة تقديره فيما فيه نفعهم وما يؤيد الايمان بالرجوع الى الله عند حلول ما يظهر فيه عجز الانسان وضعفه، وما في دعوة الاسلام من حق وما في اجتناب ذلك من باطل، الى ما يناسب المقام وخاصة بذكر المشركين وصدودهم وما كانوا يطلبون عناداً كقولهم للرسول عند سماع آيات القرآن البينات «ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل: ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا مايوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم» (١٥) وان ما يعبدون ليس ما يستحق العبادة فهو لا يضر ولا ينفع بحد ذاته وان البعد عن العقيدة النقية الصحيحة التي تتفق مع فطرة النفوس ونظام الحياة التي يدرك فيها المرء معنى الايمان بقدرة الايجاد ونظام الوجود وما يعود عليه من ذلك من نفع او ضرر، انما يستدعي كلمة فاصلة وحكما مبرما، وحق ذلك بعد ان كان الناس امة واحدة على الفطرة النقية فاختلفوا، «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما هم فيه يختلفون» (٩١) وهذه الكلمة هي قانون الحياة كما هي بحالتها الحاضرة ومكانتها

من الحياة الآخرة حيث المثوبة والعقوبة، ذلك يوم الفصل، وضرب المثل للحياة الدنيا التي يستمتع المرء بما يستمتع به منها فتكون نعمها من دواعي غفلته عن ربه باستغنائه عن الرجوع اليه ودعائه وما يتعاقب فيها من النعماء رحمة والضراء تذكيراً، بغيا في الارض بغير الحق قائلا «انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها أتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (٢٤) فليس في خيرات الدنيا وزخارفها ما يخلد ويبقى مما تطمح اليه النفس البشرية وانما هي متعة ذاهبة كأن لم تكن، فجدير بالمرء ان يتفكر بما وراءها مستمتعا بها بما يصلح شأنه في مثل طعامه وشرابه ومبيته دون ان يغتر بها عما وراء ذلك مما يدعو اليه «والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم» وذكر من شأن الآخرة والثواب فيها والعقاب ما أتم المعنى، وكر على ما كان بصدده داعياً الى تقواه «قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الامر فسيقولون الله، اذ نسبة ذلك النظام المحكم الى المصادفة لا يقره العقل ابداً فقل: «أفلا تتقون» فيأخذكم بما امركم به لصلاحكم، كما اصلح الحياة بنظمها

ووهبكم قواكم وحواسكم المدركة من السمع والبصر فيها واراكم من قدرته وتدبيره الامر مايجعلكم تطمئنون الى خير تنالونه بنتيجة مادعاكم اليه والاخذ به ، ولكن في الناس من لايأخذ بالحق لفسوقهم تمرداً وفساداً ، وعاد يناقش المشركين فيما يعبدون مبيناً اي إله حق يعبد، فهو يبدأ الخلق ويعيده ويهدي الى الحق، وان هذا هو مايدعو اليه القرآن وهو مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة، فمن حسبه افتراء على الله فليأت بسورة مثله « وادعوا من استطعتم من دون الله » ثم اتبعه بخطاب للرسول بان عليه الدعوة وعلى الله الحساب وان المشركين يستعجلون به مما يحذرهم منه « قل أرأيتم إن اتاكم عذابه بياتاً او نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون » أتؤمنوا بعد وقوعه ثم استلان قلوبهم بتبيان دعوته قائلا : «يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين» (٥٧) وبين لهم ان مايحلونه ويحرمونه من الارزاق وما يفترونه على الله في ذلك باطل سيحاسبون عليه، وثبت المؤمنين بان لهم الامن «لاخوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله، فهذا حكمه، وذكر للرسول مايثبت في هذه الغمرة فؤاده فيما يدعو اليه بان العزة لله جميعاً فهو ينصره وهو الذي وضع نظام الحياة بليلها ونهارها .. ثم اتى على

أشراك الذين «قالوا اتخذ الله ولداً» وانتقل الى ان لهم العذاب بافترائهم هذا، وذكرهم بما كان من نوح وقومه «إذ اهلكهم الله» وألمع الى من جاء بعده، وذكر فرعون وقومه ونعمة الله على بني اسرائيل في إنقاذهم منه وهدايته لهم ثم كان منهم «ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم» (٣٤) مبينا طغيان النعمة والغلاء بعد التنبيه مما تدور هذه السورة حول معانيه، ورجع الى الرسول بخطابه في صدد المعاندين بأن ما أنزل عليه الحق وان اهل الكتاب يعرفونه وأن الخسران على من كذب بذلك وأتي على ذكر قوم يونس اذ رأوا بشائر العذاب فأنابوا فرفعه الله عنهم «ولو شاء ربك» [مشيئة يكره الناس عليها] «لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس [يا محمد] حتى يكونوا مؤمنين» (١٠٠) فما عليك الا الدعوة وفي ذلك مشيئة الله بما ترك لهم من الحرية ليكونوا بذلك اهل التبعه احسنوا او اساؤا «ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» (١٠١) ونبههم على داعيه الايمان من هذا العالم بقوله: «قل انظروا ماذا في السموات والارض» واتم في الآيات اللاحقة معاني ما كان بصدده وختم السورة بدعوته الى الايمان بالحق ودعوة الرسول الى الصبر والتبليغ وما يراد بالناس من ذلك «قل ياايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحي اليك واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين» (١٠٩-١١٠)

فهي سورة تذكر الايمان والصدود عنه وما يتصل بذلك من ترغيب وترهيب بحجج ومنطق يبين نظر الاسلام الى الحياة وفهمه لها ومبادئه الاساسية فيها ومن بعدها سورة هود .

هود سورة استهل القول بذكر الكتاب وما فصل فيه والعبادة والمتاب لتطيب الحياة مع حسن الثواب في الاخرة ومبينة ما في الصدود عن ذلك من عذاب يعذبهم الله به وهو الذي «يعلم مايسرون وما يعلنون» وافاض بذكر احاطته بخلقه وانه اوجد نظام الدنيا بعد خلقها على ماهي عليه «ليبلوكم ايكم احسن عملا» (٨) فالعبادة في هذه السورة مرحلة من بعد الايمان الذي اتي عليه في السورة الانفة وهكذا تتابع السور متممة بعضها بعضا مما فيه وحدة في الموضوع والقصد وقد انساق مع دواعي العبادة التي جبلت مع نظرة الانسان فجعلت الذين غريزة لها دواعيها من نفس الانسان حتى كان كما قيل حيوانا متدينا، ذاهبا في ذلك مذهب عرض مايكون من الكافرين وما يتملون به اولا بذكر الموت والبعث وانكارهم له بقوله «ان هذا الا سحر مبين» واستعجالهم العذاب ليصيب ... كم انهم ثانيا بذكر حالة الانسان بما يصيبه من باس اذا نزعت عنه رحمة الله وانه اذا «اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن: ذهب السيئات عني انه لفرح فخور» (١٠) فالبعث بعد الموت ونعم الله في الحياة والنعم تشمل عنايته تعالى بخلقه التي انزلت كل شيء منزلته فجعلت

الانسان يستمتع بما فيها بفضل دقة النظام وحكمة القدر) الى ما يتصل بذلك من سلطانه تعالى في ازالة مايئس الانسان من ضر يحدق به حتى يبلغ حالة اليأس من عجزه المطلق المطبق انما هي الاسس التي تنطبق عليها دواعي الايمان في نفس الانسان، فهو من ذلك بين يأس من عجز ، وفرح وبطر من كبرياء وغرور « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كبير» ممن آمنوا وعملوا بمقتضى ايمانهم فاعتدلت اخلاقهم ، فلا هم في بطر ولا هم في يأس معتدلين اهل سكينة وطمأنينة بفضل ايمانهم واخلاقه وما يفعلون من عمل صالح وحسبك من ذلك صبرهم على ما اصابهم رضاء بالقضاء وثقة بالله .

وانتقل من ذلك الى خطاب الرسول بوجوب الصبر على تبليغ دعوة الايمان قائلا بان بيدك البرهان (بلغة تسير مع الطريقة التي سار عليها في مخاطبة المعاندين) بان تحداهم أن يأتوا بمثل مايوحى به اليه مما يزعمون افتراءه من سور القرآن ، وحكم عليهم بالعجز مستدلا من ذلك على انه « انزل بعلم الله وان لا اله الا هو ، فهل انتم مسلمون » وذكر بعد هذا بين داعية الدنيا في مطمع النفس الانسانية وداعية الآخرة قائلا بان العمل في سبيلهما ثمرته من عند الله الذي خلقهما « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها ، وهم لا

يبخسون» (٥١) فمن سعى في مال او جاه او مطمع من مطامعها سالكا الى ماينشده سبله ، لايبخس ثمرة مسعاه ولو كفر ، ولكنه باقتصاره على ذلك يخسر آخرته ، «أولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون» (١٦) وذكر ان القرآن عما أتى به له شهادته من الكتب السماوية من قبله ، اقامة للحجة فيه على اهل الكتاب ثم عرض عن يكفر به وعقابه في الآخرة «والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا» (١٦) «اولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من اولياء» وافاض في المقابلة بين المؤمنين والكافرين وما يلقون، ثم اتى بالشاهد التاريخي ذاكراً دعوة نوح وما قابلها به قومه من صدود اهلكهم الله بسببه بعد ما اقام عليه البرهان بحسن جدله بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى قالوا اخيراً متمردين «يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين» فاستلان لهم ولكنهم كذبوه ثم سخروا منه بعد انذاره لهم واتى على ذكر الطوفان عذابا من عند الله وان كان فيه ابنه ، فلم ييأس من رحمة الله بانجائه ، فقال مناديا ربه «رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين» [٤٥] فقال له ربه «يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح» فاستغفر ربه ونوه بعد ذلك بان مثل هذا الخبر التاريخي كان مغيباً عن محمد [ص]

الذي اتى به في القرآن وعن قومه مقيما بذلك الدليل على انه وحي يجب الايمان به، وان عليه من ذلك ان يعتبر بما كان من نوح (ص) فيصبر على دعوته « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين »(٤٩) ثم ذكر عاداً قوم هود (ص) وما كان من دعوتهم وصدودهم ايضا ثم ذكر ثمود وقولهم لنبيهم « ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا، أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا »(٦٢) ثم ذكر ابراهيم في المؤمنين وقوم لوط في الهالكين، ومدين ونبيها شعيبا (ص) وحذرهم بمن مضى قبلهم فقالوا « ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول، ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز »(٩١) ثم ذكر فرعون بالهلاك بعد ان جاءه موسى « بآياتنا وسلطان مبين »(٩٦) وانتهى من هذا العرض الى خطاب الرسول بقوله « ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد »(١٠٠) فالبرهان واضح والعبرة بينة « ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » (١٠٣) قياسا على ما فعل الله بهم بانزاله هذا العذاب بالدنيا حتى اهلكهم، وافاض في ذكر تلك الحياة بثوابها وعقابها، ودعا الى الاستقامة وما يناسب المقام قائلا فيما قاله « ان الحسنات يذهبن السيآت، ذلك ذكرى للذاكرين »(١١٤) مبيناً الحكمة من ذكر الامم التي اهلكت بخطاب الرسول الاعظم (ص) « كلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى

للمؤمنين» (١٢٠) فمن لم يؤمن فلينظر ماتوعده الله به «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما يعملون» (١٢٣) فهي سورة العبادة والدعوة اليها وما يكون من اقبال عليها اوصدود عنها من كفر وايمان ومن بعدها سورة يوسف

يوسف قصة ابتلاء فيها تصوير لاخلاق المؤمن بصبره وعرض حياته بما تخللها من مكائد وظلم وإغواء وما كانت فيه العاقبة، وهي السورة الوحيدة من بين السور الطوال التي لايماري في وحدة موضوعها أحد لانها تجري على طريقة القصص الذي تنتظم فيها وحدة المعاني على تنوعها بسياق الحادثات، فلها من الحياة موضوعها، وكذلك تظهر بقية السور لمن تدبر، وقليل ماهم، ويكاد القارئ لسورة يوسف يجد فيها جميع المعاني التي تتصل بالايمان وحياته وما كان يخفى عليه من وحدة الموضوع في غيرها من السور حتى لينكر ذلك، فهي مستهلة بالتنويه بآيات الكتاب المبين، وانه انزل القرآن عربيا «لعلكم تعقلون» وان فيه احسن القصص وحياً لم يقع لك يامحمد في روع، ثم سرد من بعده قصة يوسف ومارآه في منامه بصفاء نفسه الذي انتهى به اخيراً الى الانباء بالمغيبات مما يدخره الناس في بيوتهم ثم الى وحي السماء ودعوة الايمان وإعمار الارض بما يصلحها بعلم وأمانة بقيامه على خزائن الارض، وما كان بين ذلك من مكيدة إخوة يوسف وهمهم به حتى اوشكوا ان

يقتلوه، ثم إلقائهم له في بئر اتخذ منه اسيراً يباع بدريهمات قليلة ثم ما كان بعد ذلك من وقوع امرأة العزيز بحبه شغفا به وتأبيه وفاء لنعم الله « ان ربي احسن مثواي » مع ما في ذلك من خشية الله « اذ رأى برهان ربه » يذكره النهي عن الزنى ذكراً كان من قوته ان شبه له بما يراه الناظر، ثم دعاءه ربه ان يصرف عنه كيد النساء بقوله: « وإلا تصرف عني كيدهن اصب اليهن وأكن من الجاهلين » (٣٣) وما كان بعد ذلك من سجنه الى ان تمت العقدة و بكى والده فقده حتى كاد يذهب بصره، فاذا بالحوادث تهيئ له اسباب الرفعة والمكانة العزيزة والسلطان المكين مع براءة الساحة مما افترى به عليه بهتانا ثم يلقى الأهل بعد ذلك بعد ان قال يعقوب لبنيه « يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله ألا القوم الكافرون » (٨٧) فكان في ذلك تصويراً لابلغ اثر الايمان في نفس الانسان، وهكذا تاتي مع كل مناسبة كلمة فيها من بيت القصيد ما فيها تظهر به الغاية من سردها في هذا الكتاب الكريم، وختمت القصة بمجموعها بقول يوسف شاكراً ربه شكراً فيه أخلاق الايمان: « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والارض انت وليي في الدنيا والاخرة، توفني مسلما والحقني بالصالحين » (١٠١) ثم نوه القرآن بان هذه القصة بتفاصيلها كانت من انباء الغيب الذي يؤيد صدق الوحي والدعوة الالهية في هذا القرآن

ذاكراً ماينا سبها مما ترتبط به هذه السورة بما سبقها بتوجيه الخطاب الى سيدنا محمد «وما تسألهم عليه من أجر إن هو الا ذكرى للعالمين * وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وأنهم من ذلك على خوف نزول العقاب بهم، فعليه الدعوة وعلى الناس العبرة بمن مضى وان الخاتمة للرسل بنصرتهم ، وختمت السورة بقوله «لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه [من الكتب السماوية السابقة بايراد ماينا سب المقام منها للعبرة برهانا على ان القرآن من مشكاة السماء التي تنزلت تلك الكتب منها] وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» وهنا بيت القصيد ان كونوا مؤمنين على هداية ربكم، فهي سورة ايمان وهدى بمظاهرهما من حياة مفصلة ومن بعدها سورة الرعد

الرعد مستهلة بذكر الكتاب وانه الحق « ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » فهي سورة تبحث في الايمان ببرهانه من هذ الخلق وما يدل عليه مما فيه من قدرة وحكمة، مع نقاش لمن لا يؤمن بالآخرة ونشأتها الثانية وما يستعجلونه من عقاب ينذرون به ويحذرون منه ، فالآيات تنساق مع هذه المعاني متعاقبة حسبما يقتضيه البيان وروعة الايمان « وانها دعوة الحق » لله « ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال» (١٥) ومقارنـ

عبادته تعالى عما يعبد من دونه وما يتصل بذلك من حديث أهل الكفر واهل الايمان « أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى؟ انما يتذكر اولو الالباب»(١٩) ممن تستقيم حياتهم وتحسن عاقبتهم «والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٩) وذكر الرسول من بعد ذلك وان مايلقاه من الصدود سنة قديمة جرى عليها الكافرون تثبيتا للرسول في دعوته بخطابه « قل هو ربي لا إله الا هو عليه توكلت واليه مآب * ولو ان قرآناً سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى [لكان هذا القران، ولكنها سنن في خلقة ونظام الحياة واهلها في الهداية والضلال والايمان والكفران فلا تأس على ماتراه فان الدنيا والاخرة بسلطان الله] بل لله الامر جميعا» (٣٠) والزمه بالصبر على مايلقاه من المشركين « ولو اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ، مالك من الله من ولي ولا واق » (٣٧) وأنك دارج على سنة من أرسلنا قبلك «فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب»(٤٠) مختتما السورة ببرهان رسالته بقوله «قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»(٤٣) فجعل مرد الامر الى الله والى اولي العلم بالكتب السماوية المنزلة لمعرفة نور بنور يشعان من مشكاة الهية واحدة. ومن بعدها سورة ابراهيم (ص)

ابراهيم سورة مستهلة بذكر الكتاب والغاية من انزاله «لتخرج

الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد» فهي سورة تبين غاية الرسالة وما تنطوي عليه ومن يقف في وجهها وما سيصيبهم بهذا السبب، وفيها من نسق السورة السالفة ما يجعلها حلقة من حلقة، وسرعان ما انتقلت من ذلك الى الاستشهاد بالتاريخ والرسالات السابقة فذكرت موسى وما أمر به «أن أخرج قومك من الظلمات الى النور» وذكرهم بايام الله، (٥) فيمن أهلكهم حتى استخلف بني اسرائيل من بعدهم بوعده القائل: «ولنسكنكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» (١٥) وأتى على ذكر ما يناسب ذلك من عقاب الاخرة وما يستبين لهم يومئذ من ضلالهم مع ذكر المؤمنين بما سينعمون به في جنات «تحيتهم فيها سلام» فهي كلمة ولكنها بميزانها الثقيل وما وراءها من خير كثير أوضح المرام منه بقوله: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا: كلمة طيبة، كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون» وفي هذا تبيان لاسلوب القرآن في تخصيصه الذي ينتهي منه الى تعميم، فما أتى على ذكر كلمة طيبة «سلام» حتى أعقبها باية تحسب المعنى فيها مستقلا عنها في بدء يوهم هذا الاقتضاب، ولكن المتدبر له يراه من اطراد الموضوع جارياً على نسقه من إحكام القاعدة وبيان الحكم العام ايضاحا لمعنى الكلمة، وقد أتى من بعدها بما فيه تمام الايضاح

بذكر مايقابل الكلمة فقال «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار» ورجع الى إتمام ما ابتداه بقوله: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الاخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء» (٢٦) ورجع الى مايتصل بهذا المعنى وما كان فيه، فذكر ماانزل بالذين يبدلون نعمة الله كفرا «واحلوا [بسبب ذلك] قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار» (٢٨) وذكر ما كانوا عليه من فساد العقيدة وعبادة الاوثان ولما اتم ذلك شرح حالهم في دنياهم وأخراهم الى مايستوجبه الايمان من اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة «من قبل ان ياتي يوم لابيع فيه ولا خلال» مبينا ان الحكمة من ذلك صلاحهم وان الله قد وفر لهم النعم، فما يدعوهم إليه انما هو من نعمه والخير لهم وليست دعوته اياهم من حاجة «الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره، وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين؛ وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ماسألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها» وبهذا الاسلوب الاخاذ بين المقصد في عباداته وما دعا اليه والايمان وغايته من هذه العبادة بانها منزهة عن تكليف فيه حاجة لمن امر بها وهو الله الغني عن العالمين المتفضل عليهم بكل شيء ولكن في الناس من لايرى ذلك

فيكفر بنعمة الهداية « ان الانسان لظلوم كفار »(٣٣) وانتقل بعد ذلك الى مقارنة بين الايمان بما فيه تمام نظام الحياة جريا مع فطرتها وبين الاديان الباطلة الوثنية فذكر ابراهيم(ص)وما انتهى اليه في قربه من الله وما كان يدعو اليه . وهو يمثل العبادة الفطرية الصافية النقية وأنه هو الذي اقام الكعبة المشرفة بيتا لعبادة الله حتى اذا انتهى من ذلك كر على الظالمين منذراً بما سيعاقبون به انتقاما فيه العدالة «ليجزي كل نفس ما كسبت» مختتما السورة بقوله : «هذا بلاغ للناس ولينذروا به ،وليعلموا انما هو إله واحد ،وليذكر أولوا الالباب» ومن بعدها الحجر

الحجر : سورة مستهلة بذكر الكتاب وندامة الكافرين إذ يرون [وهم فيما انذروا به] ما بشر به المؤمنون « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ولكنهم اليوم عن هذا في غفلة معرضون « ذرهم يأكلوا ، ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون» نتائج ماهم عليه من هلاك له في الحياة سابقة تنزل منه منزلة برهان على وقوعه حين يحيق المكر باهله ويستحقون الهلاك جريا مع سنة الله فيمن اهلك من الامم الخالية « وما اهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ما تسبق من أمة اجلها وما يستأخرون » وفي مثل هذه الآيات تبيان واضح لوحدة المعاني وتسلسلها في السور المتتابعات فانها آيتان اوجزتا ماكانت السورة الآنفة اتت عليه مفصلاً ، وانتقل بعد هذا الى عرض

مايلقاه الرسول الاعظم «ص» من الكفار بصدودهم ومايتطلبون جدلا وما يقولون إفكا مصوراً عنادهم بقوله : «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا : إنما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون» [١٤-١٥] واتى بعد هذا على ذكر ماغفلوا عنه وهو برهان واضح على وجوب الايمان والاخذ بالرسالة والقيام بما اوجبته من عبادة اذ ذكر من المخلوقات سماء ونجومها وارضا ورواسيها وما فيها «من كل شيء موزون» ومعايش بها ينعمون وهي منزلة بقدر معلوم ورياح لواقح وماء وري وإحياء وإماتة «ونحن الوارثون» مما لم يعتبروا بالنظر فيه رغم جلاء برهانه «ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين» ٢٣ فسيحشرهم ربهم ويجزيهم بصنعهم وهو الذي خلق الانسان والجان والملائكة فلا تخفى عليه خافية ولا تعجزه بهم ارادة وقد انعم عليهم، فكرم آدم بالسجود واتى على قصته مع ابليس وطرد الله له من رحمته واتم المعنى بما يناله المتقون من جنات النعيم وأمر الرسول بتبيان معنى ذلك قائلا «وان الله غفور رحيم» وأن عذابه هو العذاب الاليم ونبأهم باستطراد القول بما كان من ابراهيم اذ انعم عليه بالذرية رغم كبره وما اهلك الله به قوم لوط بما افسدوا به وختم هذه القصه بقوله : «ان في ذلك لآية للمؤمنين» وانتقل الى ذكر قوم شعيب [اصحاب الايكة] وثمود اصحاب «الحجر» واهلاكهما بالماء موجز مبينا

بعد ذلك مايتصل بمعنى اهلاك الامم بعد ايجادها بان السنة في البقاء والفناء قيام الحق ، وأن الاخرة من وراء ذلك باقامة العدل ايضا « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية » (٨٤) وختم هذه الاية بالالتفات الى الرسول مهذبا معلما « فاصفح الصفح الجميل »(٨٤) ملزما له بذلك لانه واجب كمالاته بدليل أن الله « هو الخلاق العليم » اوجد الناس وعلم ماهم عليه فتجاوز عنهم طويلا ولم يبدهم عجلا فان الحق لابد من اقامة حجته بعد طويل الصبر على دعوته ذاكرا ماامتن الله به على رسوله من الوحي والهداية « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » فانت على نور من ربك وخير كبير من هدايتك فافض من هذا الخير على الناس بالدعوة والصبر عليها ، مرشدا له بما فيه تثبيته وكمال دعوته بقوله « لاتمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجاً منهم » فتستعظم ماهم فيه مما يستمتعون به طمعا بمثله او حكما عليهم بانه (وهم على الكفر) ليسوا له اهلا فاننا سنأخذهم بجرائرهم « ولا تحزن عليهم » ان اهلكناهم فان بالانعام واهلاكهم اخيرا اقامة للحق الذي سبقت الايات بذكره بعد تعداد نعم الله من قبلها « واخفض جناحك للمؤمنين * وقل اني انا النذير المبين »(٨٨) فان في ذلك اقامة للحجة لله على من سيهلكهم ، واتى على مافية تمام هذا المعنى بخطة حازمة فيها ثمرة ماسبق تبيانه بقوله « فاصدع بما تؤمر واعرض عن

المشركين ، وختم السورة بما في ذلك من مشقة يضيق بها الصدر أوضح دواءها بقوله «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون* فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» فان في ذكر الله سبحانه ذكر لنعمه وحكمته وقدره، وفي معرفتك ما أنت فيه من نعم الله وهدايته، في خضوعك لما أمرك به وعبادتك له يقيناً تهدأ به نفسك ويخف عنك ما تلاقيه فيه، يقين تنتهي اليه بما تراه من صدق وعد ربك في خواتيم الامور وفي مصيرك اليه في منقلبك، وهكذا فان هذه السورة توضح مصير الكفر وأهله وحكمة الله فيه وموقف الرسول بين ذلك في دعوة وصبر ومن بعدها سورة النحل

النحل سورة مستهلة بذكر إهلاك المشركين وهو معنى من معاني السورة الآنفة يبين ارتباط هذه بتلك وكيف تقوم كل سورة بايضاح موجز ماسبق ذكره، وإن الشرك والكفر والايمان والهداية من الموضوعات العامة التي لها فروع منوعة بحسب بواعثها ومعتقدات أهلها وحالاتهم وما يتصل بذلك، فالاتيان على ذكرها يتقارب ويتداخل حتى يوجب التكرار، هذا فضلا عما تأتي عليه كل سورة بايجاز ماسبق في غيرها مما يتصل بموضوعها، فالتكرار لهذا بمنزلة التأكيد او الشرح والايضاح، وان الاسلوب فيه ليختلف باختلاف مساقه وان الخلق بتكوينه يوجب الايمان بالله لدقته ونظامه وحكمة القدر فيه مما يقوم ببرهان

الالوهية وان احاديث الامم الخالية وما لقيه الرسل كل ذلك من المعاني الدائرة في كثير من السور، فهي في كل مناسبة تأتي بقول وتعزز معنى واذا لم تكن على ذلك لداعية فقد تجد الآية مرددة بلفظها ولكنها فيما جاءت به كنغمة تسمعها مكررة في مكانها من التكرار الذي يلبسها ثوب الجدة بملاءمتها لما جاءت به تمام الملاءمة ، وفي هذا التكرار والتوكيد بهذا الاسلوب برهان القرآن باعجازه وجريه على نسق مطرد لا يشوبه مما يشوب اقوال البلغاء من جهد او تكلف ، ولا سيما اذا زجوا بهذا المأزق ... وهذه التوطئة لسورة النحل توضح مافيها بما يستبين به وحدة موضوعها وانسجام معانيها فقد ابتدئت بتوعد اهل الشرك وسارت مع هذا السبيل مبينة ان الله اوحى بامره ماينذر به الرسول في دعوته وهو تعالى صاحب الخلق ودعوة الحق ولكن الانسان مبين في خصامه وعناده رغم مايرى من النعم التي خلقت له مستوجبة منه ان يعرف ربه بنعمه، ونفسه بضعفه، وذكر الانعام وما اليها بمنافعها وما فيها من زينة وما يدل على جليل القدرة في تنويع الخلق مما رأيناه في زمننا مناسباً لذكر الدواب وما ينتفع به ركوبا وزينة ، من السيارات والقطر والطيارات مما اوما اليه بكلمة «ويخلق مالا تعلمون» اتماما لقوله فيما خلقه « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » والتنقل الى ماينا سب المعنى

ويجري معه من الحياة المعنوية فقال: « وعلى الله قصد السبيل » (٧) بما يدعو اليه ، فالذي اعد للسبل ماخلقه مسخراً للانسان مايقطع به المسافات هو الذي اوحى بشريعته لتكون سبيلا في حياتهم يحتطونه ويسيرون عليه في اعمالهم ، ومع هذا السبيل سبل « ومنها جائر » يندفع فيها الناس « ولو شاء لهداكم اجمعين » بالالزام والاكراه ولكنه اوضح لكم الرشد من الغي وترك الامر لكم ليجزيكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر كما يختار لنفسه خيرة تكون مدار التبعة ، ومثوبة وعقوبة واتى بعد هذا على نعم معدودة فيها آيات « لقوم يتفكرون » يعقلون ، يذكرون (٩-١١) و « لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » و « يهتدون » (١٢-١٣) ولفت النظر مع هذا التعداد الى ان فيه ايجازاً على النسق الذي اطرد فيه بهذه السورة قائلا : « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » ونبههم الى مايناسب النعمة من غفرانه ورحمته مع علمه « بما تسرون وما تعلنون » وكر بعد هذا على مايعبدون من دونه مشركين به مبيناً مايفسد عليهم رأيهم مما يضاد صفات الالوهية (١٠) فكان بعد روعة الانذار ثم تعداد النعم قولا برهانياً هادئاً أخذ النفوس بمثل ماهي عليه اولا ولا سيما نفوس مشركي العرب الذين توجه هذا الخطاب اليهم في هذه السورة خاصة ، حتى اذا جبههم بالوعيد تلطف لهم بما يلائم نفوسهم مما يعرفون من النعم التي اقام

بذكرها البرهان على وجوب الاخذ بدينه وعبادته، ثم بعد ان اطمأنت النفوس الى ذكر النعم وما تدل عليه من صفات الالوهية، ذكر المعتقد الباطل الذي هم عليه بقول هادئ هادىء المنطق، زيادة في متانة برهانه من غير ان ينطوي على ترغيب او ترهيب او مجابهة، وفي هذا انموذج من اسلوب القرآن وطريقته فيما يدعو اليه، وما انتهى من تبيان الفساد في الشرك حتى أتى على دواعيه من نفوس المشركين وطباعهم قائلا: « فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة [لاتلين للبرهان اتباعا لما كان عليه آباؤهم من اباطيل المعتقدات المألوفة] وهم مستكبرون، فالصدود عن البرهان عاطفيا والكبرياء غرورا هما مبعث الاشراك والكفر لاجرم ان الله يعلم مايسرون وما يعلنون انه لايحب المستكبرين»[٢١] فكرر علمه بالسر والعلانية مما ذكره قبل ثلاثة آيات بقوله « والله يعلم ماتسرون وما تعلنون» بلفظ يختلف قليلا اختلافا مع مجراه وسياقه وسيره مع الحالات النفسية فيما تقتضيه، وهكذا فان الالفاظ في القرآن على ماهي عليه تبع للمعاني والمعاني تبع للاغراض التي تساق اليها في كتاب إلهي أريد هدى ورحمة، وانتقل من ذكر استكبارهم الى دحض ماارادوا اليه مناقشا اقاويلهم متوعدا من بعد تبيانه ذاكرا ماينالهم من خزي يوم القيامة قائلا لهم بما سيقال لهم

يومئذ «فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين» واتم ايضاحه لهذا المصير السيء بما يقابله من مصير المتقين الذين قيل لهم: «ماذا انزل ربكم؟ قالوا خيرا، للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير، ولنعم دار المتقين (٢٨) ولما تم له ما اراده من هذا السياق اوضح ان المشركين يرتقبون كمن سبقهم النتائج الاخيرة «وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٣١) واتى على ما يتوهمون فيه حجتهم بقولهم «لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء» مبينا انها دعواهم الوحيدة «كذلك فعل الذين من قبلهم» ولكن مثل هذا القول الفاسد لا ينجيهم بعد ان ارسل الله اليهم رسلة مبيناً مشيئته، وقد جعل لهم في استجابة الدعوة او الصدود عنها خيرة تكون مدار التبعة، فان كان هذا قولهم بان يعزوا لنا غير مشيئتنا فيما نجعله من الاحكام دينا يدين الناس به «فهل على الرسل الا البلاغ المبين» بما يدل على مانشاء ويقيم البرهان داحضا ادعاءهم الباطل بتبيان ارادة الله فيما احله وما حرمه، ثم ذكر البرهان الاستقرائي التاريخي على بطلان قولهم وصحة مايدعوهم اليه قائلا: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله [بايمانه وحسن عبادته] ومنهم من حقت عليه الضلالة [بصدوده وكفره] «فسيروا في الارض، فانظروا كيف

كان عاقبة المكذبين » (٣٤) لرسلنا وما دعوهم اليه ، لتعتبروا عن مضى
زيادة في الحجة :،وأتي بعد هذا على تفنيدماهم عليه مما المع إليه قبلامن
بواعث الاشتراك في الاية العشرين وهو عدم الايمان بالاخرة وما
يقولون بهذا الصدد«واقسمو بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت»
دون ان يذكروا حجة على ذلك فقابلهم تعالى قولا بقول متين فيه جهد الايمان
بما يدفعه « بلى وعدا عليه حقا » ثم عطف مضيفا برهان قوله بجهالة
المشركين وتبيان الحكمة من البعث ولكن اكثر الناس لا يعلمون
[فهو يبعثهم بعدالموت] ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا
انهم كانو كاذبين»(٢٧)واتبع ذلك بما يدفع مافي نفوسهم من قولهم
بصعوبة البعث واستحالته فذكر مافي قانون ارادته وتبيان قدرته
بمداها الاوسع في الايجاد احياء واماتة وبعثا وما وراء ذلك«انما قولنا
لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون » وانتقل الى مايناسب
هذا المقام من ارادته في صدد الشرك واهله بذكر من يقابلهم من
الذين آمنوا وهاجروا وظلموا وما اعد الله لهم بقوله «لنبوئنهم في الدنيا
حسنة ولاجر الآخرة اكبر »(٣٩)،ثم اتبع ذلك بما ينبه به المشركين
(بعد ان دحض اقوالهم وما يتوهمون فيه برهانهم) بان المقال لغيرهم ممن
لهم سابقة ومعرفة بالايمان والكفر من اهل الكتب السماوية السابقة أما
مثلهم ممن ليس لهم سابقة علم فان رايهم بغير علم بني على جهالة وختم ذلك بخطاب

الرسول «وانزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» (٤٢) فيعرفوا شيئاً من شريعتنا فيما نريده حلالاً وحراماً ولما انتهى بذلك القول ناصع البرهان وكان الاشراك من بعده عصياناً فانه ذكر ما فيه من زجر من عذابه بغتة او على تخرف ، ثم نبه ان عبادته حق له على جميع الكائنات التي اشتملت عليها السموات والارض «وله الدين واصباً» فهل يعبد غيره إشراكا به «افغير الله تتقون» ثم عاد يذكرهم بعد الانذار والبرهان بما يوجب ذلك من نعمه قائلا «وما بكم من نعمة فمن الله» ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون» ولكن منهم من بعد ذلك من يشرك بربه كفرا وأتى على بعض معتقدات المشركين وما كانوا عليه في الجاهلية «ويجعلون لله ما يكرهون [كقولهم بان له البنات] وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لاجرم ان لهم النار وانهم مفرطون» (٦٠) وان ذلك من غواية الشيطان لهم كمن سبقهم من الامم «وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (٦٢) ورجع الى ما كان يذكره من نعم الله في خلقه بما يناسب المقال فذكر ما يحيي به الارض من ماء انزله من السماء فضرب مثلا بذلك الاحياء بعد الموت مما فيه قرينة دالة على البعث يوم الحساب ، وان ما ينزله من سمائه فيه حياة ، فالماء يحيي الارض والوحي بهدايته يحيي الانسان ، وذكر ما ينعم به العرب المشركون بهذا الاحياء من الحيوان والانعام والنبات والنخيل والاعناب

مبيناً ما في ذلك من «آيات لقوم يعقلون» (٦٥) واتى بتعداده النعم والآيات وما فيه برهان وحدانية بما يناسب ما ذكر من نبات وحيوان واحياء ووحي جامعا بين ذلك مع تدرج بين طبقات الكائنات الانسان والحيوان والنبات بما جرى فيه سياق قوله في الآيات السالفة بتناظر وحسن تقسيم، ثم خص بالذكر النحل وما اوحى اليها ربها باهدائها اليه بغريزتها «ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات، فاسلكي سبيل ربك ذللا» فانه هيأ لك الاسباب فلا عقبة تصدك وكذلك سبيل هداية الناس فيه استقامة وسلامة ونجاة في الدنيا والاخرة وختم الاية بما ينعم به الانسان من سعي هذا الحيوان ـ النحل ـ فقال «يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون» (٦٧) ثم ذكر ان الله خلق الانسان وانعم عليه بما يعلمه «ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا» قبل ان يميته، فالهداية هدايته ما دام هو مصدر ما نعلم وكل ذلك نعمة من نعمه، وتوالت الآيات بما مهد لها فيما سبق بذكر نعم عددها «والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، «والله جعل لكم من انفسكم ازواجا (٧٠) ومع ذلك فهم «يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا» وقد كان المشركون يقيسون الاقيسة الفارقة لاثبات معتقداتهم الوثنية، فضرب لهم الامثال بتبيان الفارق الذي يفوتهم

«فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وانتم لاتعلمون (٧٢) منبها فيما ذكره على قدرته ورزقه عبادة، وهداية خلقه وانها دائرة بينهم بالعدل وان في ذلك الصراط المستقيم، وان علم الله لاتخفى معه عليه خافيه «ولله غيب السموات والارض» وذكر ان قيام الساعة التي ينذرهم بها «كلمح البصر او هو اقرب» (٧٥) وانه هو علمهم مايعلمون فليس لهم ان يردوا عليه قوله وهو الذي جعل لهم «السمع والابصار والافئدة» (٧٦) التي صار إليهم بها مايعلمون، وان نظام الكائنات كله بيد الله فذكر تنبيهاً على ذلك هذه الطيور وهي «مسخرات في جو السماء مايمسكهن الا الله» وذكر مايناسبها مما انعم عليهم به من مسكن وظلال ووقاء، حتى اذا انتهى بذلك من استلانة القلوب واقامة البرهان انذر بعذابه يوم القيامة وانه سيبعث الرسول الاعظم شهيداً على ماأمروا به وقد نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء [مما سيسألون عنه من معتقد وعبادة وعمل وخلق] وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (٨٧) واعقب ذلك بامهات مادعا إليه بقوله خطابا للمسلمين الذي جعل البشرى في الدنيا لهم قبل الآخرة: «ان الله يأمر بالعدل، والاحسان، وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» ثم خص بالذكر مما دعا اليه الوفاء بالعهد والثبات على الايمان وحذر من مزلات الاقدام

فقال «ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم» «ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا» مبيناً مثوبتهم بقوله «من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ،ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون» (٩٥) فذكر بذلك ما أمرهم به وما نهاهم عنه وما يثابون عليه ونبه على ان البعد عن ذلك والاشراك من زلات الشيطان وان له مداخل خافية حتى اوجب الاستعاذة منه عند قراءة القرآن زيادة في التحذير ، لئلا يتخذ من وساوسه عند عجزه عن اطاعته مايضل به فيفسد الفهم او العمل فيضل مؤمن وهو لا يعلم مبيناً بان لاسلطان له «على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون» (٩٨) ورجع الى ما كان من المشركين من صدودهم عن الاستجابة لدعوة الرسول الاعظم بقولهم له «انما انت مفتر» «رغم ان اكثرهم لا يعلمون» الحكمة اذا بدل الله آية مكان آية جريا مع حكمة النسخ باعقاب شريعة لشريعته والتمهيد لشريعة خاتمة حسب ما تقتضيه الحكمة الالهية ومصلحة العباد ورحمتهم وهداية واندفاعهم بهذا الزعم وقولهم بان مايدعيه الرسول من الوحي «انما يعلمه بشر» فدفع ظنهم هذا بقوله : «لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين» (١٠٣) وذكر ماينا سب ذلك ثم رجع الى ما اوجبه من الثبات على العقيدة بان سينالهم غضب الله ان كفروا بعد ايمانهم اللهم «الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان»

(١٠٤) «ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون» (١٠٦) وذكر من كان على عكس ذلك صابراً مجاهداً ممن اوذوا في صدر الاسلام واضطروا الى الهجرة وان «لهم الآخرة» وبين ان نعم الله تستتبع نعمه «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» وانه «جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون» (١١١) وذكر لهم ما يناسب ذلك مما انعم به عليهم من الطيبات وما حرم عليهم، وحذرهم من افتراء الكذب على الله قائلا «ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم» (١١٥) ثم ذكر انه حرم من قبل على اليهود ما قصصنا عليك (في سورة الانعام) «كل ذي ظفر» .. وانهم ظلموا انفسهم تحذيراً للعرب من ان يلحقوا بهم بظلمهم بالاصرار اذ قال «ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا، ان ربك من بعدها لغفور رحيم» (١١٧) ثم ختم السورة ذاكراً ابراهيم بعقيدته النقية وانه «لم يك من المشركين» شاكراً لأنعم الله خلافا لما يزعمه المشركون من انهم اتباعه في معتقده وعمله وانما انت يا رسول الله على سنته اذ اوحينا إليك ان اتبع ملة ابرهيم حنيفا «وان القول الفصل

فيما اختلف فيه الناس من اباطيل المعتقدات والمحرمات يوم القيامة ان يحكم به الله وان عليك ايها الرسول ان تبلغ وحيك متخذاً شعارك ما امرت به بقول الله، «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم [للمشركين والكافرين] بالتي هي احسن كما رأيت في هذه السورة ان اتوك بقول ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين» فسيثيب كلا بما يستحقه من خير او شر وانكم ان لقيتم من صدود وكفران وايذاء وأردتم العقوبة فبالمثل «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» واصبر [يا محمد وبذلك خصه بالقول بعد ان عممه بتوجيه الخطاب له والى امته] وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم [اي على هؤلاء المشركين] ولا تك في ضيق مما يمكرون * ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» (١٢٦) وبذلك ختم السورة فهي بموضوعها تذكر المشركين من العرب الوثنيين وتقيم عليهم البراهين في اباطيل معتقداتهم وفاسد اعمالهم على تعدد ما اتت عليه من الاغراض والمعاني والآيات، ولعل في سياق الايات فضلا عن معرفة اسباب النزول ما يوضح مكانة معنى من معنى وارتباط آية بآية ولو عرفت اسباب النزول ومواقعها لكان في ذلك زيادة ايضاح وقوة ومن بعدها سورة الاسراء.

الاسراء: مستهلة بتنزيه الله وتمجيده في قدرته وما ينعم به توطئة لذكر نعمة الله على رسوله بالاسراء به «ليلا من المسجد

الحرام الى المسجد الأقصى الذي بار كنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير »يريد ان يفيض على محمد ما يرى معه ببصره ويسمع باذنه مافيه من آيات الله في بقعة أفاض عليها من بركاته ورحمته ماافاض وفاء لثباته فى دعوته وتثبيتاً له ليرى ماأعد الله له جزاء اتكاله عليه، مما يتضح من سياق ما وراء آية الاسراء من آية ذكر فيها سبحانه موسى وقومه وفي المقدس بيت عبادتهم ، وفي تلك البقاع تجلى الله لموسى وكلمه وانزل الوحي عليه، وذكر انه جعل التوراة لقومه هداية قضت «ألا تتخذوا من دوني وكيلا ، وقد انعمت عليكم بذلك بعد ان أهلكت من قبلكم من كفر بالنعمة ،وانتم »ذرية من حملنا مع نوح» هذا الذي لم يكفر بالنعمة «فانجيناه انه كان عبداً شكوراً» فشكران النعمة والثبات على الايمان والاتكال على الله هو موطن العمدة في آية الاسراء وآياته وصلته في استهلال السورة بعد ان قد كان في السورة الانفة يقارع المشركين من العرب ويأمر الرسول بما أخذ به نفسه من صبر ودعوة، وانهم انكروا عليه هذا الاسراء من نعم الله حتى ارتد بعض من آمن به قبلا قائلا له: (كان امرك قبل ذلك أمماً) فاغربت في مدعاك يا محمد وعلى اثر ذلك ذكر هذا الاسراء والحقه بما فيه تأكيد له من انعام الله وانه لا يخرج عن سنته في معاملته لخلقه وهذه السورة تستهل بخطاب الرسول الاعظم وتسوق الايات مساقها ثم تعود لتخاطبه كانسان عليه واجب الايمان

و كرسول عليه واجب الدعوة ،فكان الخطاب في سورة النحل السالفة الى العرب وفي هذه السورة موجهاً الى رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم فابتدأ بآية الاسراء ،وذكر بعدها بني اسرائيل بما كان منهم وما سينزل بهم من النكال وفي خلال ذلك مايذكرهم بالله ويستلين قلوبهم لدينه ومايدفع عنهم النازلة « عسى ربكم ان يرحمكم ،وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً (٨)واظهر لهم طريق الرحمة بما بعدها من آية «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ،ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً» (٩) وانتقل من الانعام على الفرد وهو الرسول الى ما اوجب هلاك امة واوضح بعد ذلك ما فيه الهداية والنجاة والرحمة الالهية، وارتفع عن افق الفرد والجماعة الى تلك الصفة الاساسية التي تتصل بالانسان كانسان فذكر ما يناسب من خلاله مقام الدعوة الالهية فقال تعالى «ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا »وذكر من بعد ذلك ماينبه الانسان من هذه الزلة من آيات الله في خلقه ودقة نظام الموجودات ومافيها مبيناً ان «كل انسان الزمناه طائره في عنقه» -١٣-فيحاسب على عمله وان الهداية له والضلال عليه بعد ان يذكره الله برسالة يدعوه اليها «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وعمم القول من بعد تذكره الانسان كفرد الى الجماعة فبين فيهم حكمة بقوله «واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها [برسالة إلاهية سماوية تحذرهم ما هم فيه

من غواية]ففسقوا فيها [وأبوا الاستجابة لها] فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا» (١٦) وايد ذلك بالساعه الى من أهلكوا قائلا «وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح» وذكر الانسان بعد ذلك في حياته الدنيا والآخرة، بربه وان الحكم فيها لله وحده، فمن سعى للدنيا طالبا «عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا» لأن في الانهماك وراء الدنيا وحدها روحا لا يمكن ان ينبعث عنها خير، فاللذات والشهوات وروح الأثرة والكبرياء والغرور امور لازمه حتما «ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها، وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا» ١٩ لا يمنع منه بر ولا فاجر رحمة بخلقه ووفاء لسعيهم فيما يسعون اليه، سيرا مع الحكمة الالهية في نظام الحياة بإثابة من يسعى فيها بثمرات سعيه والآخرة بما ينعمون به في جنة ورضوان من الله، وبه بعد ذلك الرسول الى تمايز الناس واختلافهم في درجاتهم في معاشهم وأن اختلافهم في الاخرة اكبر بحسب سعيهم «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا».. -٢١- وذكر بعد هذا ما يرتفع بالانسان في هذه الدرجات فابتدأ بالايمان في ركنه الاصلي قائلا، «لا تجعل مع الله إلاها آخر، فتقعد مذموما مخذولا» -٢٢- وذكر بعد ذلك الاخلاص في العبادة له شكرانا وأتى

على مافيه تمام الشكر على الخلق والايجاد بشكر الابوين بحسن معاملتهما ولاسيما في عهد الشيخوخة، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» -٢٤- فدل ذلك على ان توجيه الخطاب للرسول بأن لايجعل مع الله إلهاً آخر انما كان تنبيهاً على عظم أهمية هذا الركن وأنه كان خطاباً لامته من ورائه وهم اتباعه، ودليل ذلك مابعد هذا من آية تذكر بوجوب الاحسان للوالدين مع ان الرسول -ص- يتيم لطيم، وذكر في آيات تباعاً من الاخلاق والاعمال ماأوجبه ومن المبادئ مافيه نظام الحياة منتقلا من الخطاب الفردي مثل «ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط» -٢٩- الى خطاب الجماعة «ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق» -٣١- «ولا تقربوا الزنى . .» تلطفا الى النفوس واستمالة لها بتوجيه الخطاب الى الرسول بحزم في الامور التي تعتبر بحد ذاتها شخصية، ثم الاتيان على الامور العامة بتوجيه الخطاب الى الجماعة كقتل البنين والزنى ووفاء الميزان وهي كلها اعمال لاتكون من الفرد وحده، وقد رجع بعد ذلك الى خطابه الفردي بما يمس الانسان كانسان له قواه المدركة «ولا تقف مالیس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا * ولا تمش في الارض مرحا (٣٦-٣٧) وان . . . ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة» (٣٩) واتبع هذا بما كان ابتدأه في هذه الوصايا وهي خمس وعشرون قيل

بأنها مما ورد في التوراة قائلا : «ولا تجعل مع الله إلهاً آخر» ٣٩) حتى اذا انتهى من دعوته الى ما فيه كمال الفرد في معتقده وخلقه ومعاملته دعا الى ما فيه صلاح المجتمع ولاسيما العربي الذي كان يتجه الخطاب في هذه السورة اليه، اخذ بمناقشتهم فيما يناسب ذلك فابتدأ بالمعتقدات التي يعتقدونها مؤمنين بها تبيانا لما دعا اليه من وحدانية، واخذ يسوق الآيات بطريقة جدليه مفحمة ببرهانها، قوية بتأثيرها وروعتها، واتى على انكارهم البعث بمثل قوله: «وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً» ٤٩ - فأجابهم بقوله «قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذى فطركم أول مرة «فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا * يوم يدعوكم [دعوة البعث] فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الاقليلا» (٥٠ - ٥٢) والتفت بعد هذا كأنما انكر ماهم عليه من الاشراك وانكار البعث مخاطبا من آمن بما يجب عليه ، لأن المشرك بعد هذا إما مصر رغم ما اوضح له فلا تنفعه دعوة وخطاب، واما مستجيب للدعوة فمثله بعد ايمانه يجب ان يوجه خطوة في طريقه الجديدة فاتجه الخطاب اليه بقوله «وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً» (٥٣) وان الرحمة والعذاب بيد الله فما على محمد رسوله الا ان يبلغ الدعوة «وما ارسلناك

عليهم وكيلا » (٥٤) فتكرههم على الايمان برسالتك، وارتفع بخطاب الرسول درجة ملمعا في ذلك الى حكمه وقد احاط بكل شيء علما « وربك اعلم بمن في السموات والارض » ونوه بمكانه في رسالته وأنها فضل من الله وأنها المعيار عنده وليس المعيار ما يتملكه في الحياة من مال ونحوه مما تضمنه قوله « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً » (٥٥) ولعل في هذا تبيان وجه ذكر داود وزبوره في هذا المقام دون ما آتاه الله من نعم الدنيا وخيراتها، واعاد الكرة على المشركين بتبيان ضلالهم في معتقدهم قائلا : « قل: ادعوا الذين زعمتم من دونه [أي من دون الله فاتخذتموهم شركاء له] فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » (٥٦) وألمع الى أن الفساد في العقيدة يمتد حتى يصبح سجية في النفوس فذكر ما يلازم ذلك من عقاب قائلا : « وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديداً ، كان ذلك في الكتاب مسطورا » وانه ما حال دون ما طلبه القرشيون من الرسول من « الآيات إلا ان كذب بها الاولون » من امثالهم ممن استوجب بعد ظهور هذه الآيات هلاكهم باصرارهم « وما نرسل بالآيات إلا » تخويفاً لان مغبتها القول الفصل باهلاك المصرين؛ وتبشر الرسول (ص) بعد ذلك باستعلاء كلمته عليهم وانقيادهم له بقوله « وإذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس فاذكر هذا يوم تراه في الدنيا بالظفر عليهم

او في الآخرة بما سينزل بهم من نكال الله، وانك سترى ذلك حقاً، ثم نوه بما يراه يقينا بمثل شجرة الزقوم في الجحيم التي استغربوا امرها كشجرة تنبت في مكان وقوده الناس والحجارة فلا يؤمنون ونخوفهم محذرين عاقبة ماهم فيه «فما يزيدهم الا طغياناً كبيراً» (٦٠) واتى على مبدأ هذا الطغيان في الخليقة بذكر آدم واستكبار ابليس عن السجود وأخذه على عاتقه ان يضل ذريته وان يسلبهم ويعدهم «وما يعدهم الشيطان الا غروراً» (٦٤) فحذر تعالى ودعا الى سواء سبيله وحذر من عقابه وذكر الانسان بمكانته ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (٧٠) «وانهم بعد ذلك سيحاسبون فيجزون بعملهم «ومن كان في هذه [الدنيا] اعمى [عن دعوة الله] فهو في الاخرة أعمى وأضل سبيلا (٧١) وانتقل الى درجة اشد في الكفر بما حاولوه مع الرسول (ص) ليديل ان يؤمن ابه، «وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتري علينا غيره ، واذا لاتخذوك خليلا (٧٢) فحذره وثبته للعبادة ووفاء حق الله وتبليغ الدعوة «وقل جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقا» (٨٠) وهذا الحق في دعوة القرآن واضح الأثر «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا» (٨١) واوضح مايدعو الانسان الى هذا الخسار بانه مستكبر مغرور «واذا انعمنا على الانسان اعرض ونآى بجانبه وعلى

العكس من ذلك في حالة ضعفه «واذا مسه الشر كان يؤوساً» (٨٢)
قل: كل يعمل على شاكلته، وربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا » (٨٣)
ثم اتي على جواب بعض ما كان يشكل على العرب مما سألوا الرسول
عنه فقال: «ويسألونك عن الروح، قل: الروح من امر ربي، وما اوتيتم
من العلم إلا قليلا »(٨٣) فاجاب موجزاً بما يفهم منه اهل العلم وجوها
دون ان يفيض في القول مبينا ان ذلك لنقص علمهم وعجزهم عن ادراك
مايسألون عنه، ونوه بما في كتابه من علم افاضه على رسوله وانه من رحمة
الله ونعمه عليه، وان فيه برهان صدقه ومعجزة رسالته فلا يستطيع الناس
ان يأتوا بمثله «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»(٧٧) وانهم وجدوا فيه
مايدعوهم للايمان ولكنهم ابوا ضلالا وقالوا اقوالا سخيفة لاتدل على
تدبر واعتبار وفهم: «وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض
ينبوعا * اوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها
تفجيراً * او تسقط السماء كما زعمت علينا [الماعا لقوله تعالى او نسقط
عليهم كسفا من السماء ..] او تأتي بالله والملائكة قبيلا * او يكون لك
بيت من زخرف، او ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا
كتابا نقرؤه » وهكذا اغربوا في مطالب دلت على حدود نطقهم
وبعدهم فهما عما يدعون اليه «قل: سبحان ربي هل كنت الا بشراً
رسولا » آتيكم بما يوحى الي واظهر لكم من المعجزات مايفيضه الله

علي، وهل جئت لاعبث بنظام الكون فاستجيب لكم بكل ماتطلبون؟ واوضح سبب امتناع الناس عن الايمان بعجزهم عن فهم الوحي او استكبارهم على منزلة الرسالة كراهية ان يرتفع عليهم بشر منهم، فرد عليهم بان في ذلك نظام الوحي والارشاد، ولو كان ثمة سبيل الى غير ذلك «لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» فلا بد لدعوة الناس من بشر مثلهم يجانسهم ويكون قدوة لهم في عمله فلا يكون غريبا عن فهمهم وغرباء عن فهمه، كل يشعر بغير شعور الآخر ويدرك غير مدراكه، وذكر بعد ذلك ماينا سب هذا التغالي والاصرار ليكون موقفا للرسول «قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم» فله القول الفصل «ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه» (٩٦) فسيعاقبهم على كفرهم بآياته بعد بعثهم الذي ينكرون بعثا اورد له برهانه بتذكيرهم بقدرة الله الواضحة فيما خلق وانه جعل لهم اجلا لاريب فيه، ولكنهم ابوا «الا كفورا» (٩٨) وفي هذا الصدود جحود لرحمة الله فيما هداهم اليه رحمة منه، واوضح بعد ذلك ان من طبائعهم مايدل عليه «قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكتم خشية الانفاق، وكان الانسان قتورا» (٩٩) ففي جحوده وبعده عن هداية الله ورحمته فساد في طبيعته واجب التهذيب والتربية بالاستجابة للايمان وما يدعى اليه ولكنه محجوب عن ذلك بغروره فهذا موسى بآياته التسع قال لفرعون «ما انزل

هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر» فلم يستبصر مستكبراً فاغرقه الله ومن معه «وقلنا لبني إسرائيل : اسكنوا الارض المقدسة » التي ارادوا ان يستفزوكم منها «وسنحكم يوم القيمة بحكمنا الذي شرعناه لكم ، وهذا القرآن يبين الحق كذلك لكم ايها الناس «وبالحق انزلناه وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشراً ونذيراً » وقد انزلناه مفرقا «لتقرأه على الناس على مكث» فيتدبروه ويفهموا مافيه ويحفظوه وأنه ينزل بحسب الحوادث الداعية ليكون فيها للناس وهداية «ونزلناه تنزيلا (١٠٥) «قل : آمنوا به او لا تؤمنوا» فان الذين يتدبرونه ولاسيما الذين اوتوا العلم من قبله -(من اهل الكتب السماوية السابقة خاصة)- يفهمون دعوته ويخشعون لها ساجدين لله «وله الاسماء الحسني» وانتقل من هذا الى ماينا سبه مما يستوجبه المقام فقال «فادعوه بها» واجعل صلاتك بسكينة «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا * وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيراً » وبهذا ختمت السورة ، فهي بموضوعها تذكر الايمان والرسالة وما تدعو تبين اليه والنعم الالهية في ذلك ، تخاطب الرسول وقومه ، وان ما اتت على ذكره من الامم الخالية تاييدا وبرهانا الماهي بسبيله عبرة للناس وقد استهلت بما رآه الرسول من آيات الله وانطوت على ماطلبه قومه المشركون من الآيات بعد جدال معهم وختمت بآية

القرآن وانه معجزة الرسالة بما فيه تأييد لوحدانية الله ووجوب عبادته وحده، ففي هذه السورة اتمام لموضوع سورة النحل السالفة بالاتيان على معتقدات المشركين ودحضها بقول مسهب، مفصل بعد ان كان الموضوع في تلك خطوة تمهد لهذا المقصد. ومن بعد الاسراء سورة الكهف

(الكهف) سورة مستهلة بحمد الله الذي انزل القرآن على عبده «لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات» (٢) ... «وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم» فيكون لزعمهم هذا قيمة «كبرت كلمة تخرج من افواههم» (٥) ولعل هذا مما يحز في نفسك يا محمد «فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» (٦) فهون عليك فان ما على الارض مما ينعمون بخيراته ويعتزون به انما اريد لحكمة «لنبلوهم ايهم احسن عملاً» فنجزي الناس بما يعملون. واتى على قصة اهل الكهف وهم فئة من المؤمنين في أمة مشركة مستهلا القول بشأنهم بان ليس في امرهم عجب، وآياتنا فيها حكمة وقدرة، فأسهب في ذكرهم وكيف احياهم الله حياة طويلة ناموا خلالها فترة كبيرة تبدلت فيها الارض ومن عليها، ذهب فيها قوم وخلف من بعدهم آخرون ليكونوا مثلا للبعث ودليلا عليه وفي خلال ذلك اتى على ما يناسب المقام والعبرة مثل قوله «ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً» (١٧) وهي قصة طلبت قريش - (بتحريض

اليهود)-ان يسألوا الرسول عنها كما سألوه عن الروح وذي القرنين، ليروا مبلغ علمه عليه السلام بما هو مغيب عنه من الاخبار الماضية التي لا يعرفها العرب وكانت في كتبهم مروية في ذلك دلالة على انه لم يكن يدور بخلدهم ان للرسول اطلاعا على ما عندهم، وقد كانوا يخفونه حتى اتفقوا على ذلك قائلين: لا تطلعوهم على شيء «ليحاجوكم به عند ربكم» فدعوهم لا يعرفون ما انتم عليه من معتقداتكم وعلمكم، وكان في هذا الاخبار مرحلة ثالثة بعد دعوته العرب للايمان في سورة النحل اولا ثم مجاداتهم في سورة الاسراء ثم الاتيان على ما طلبوه من الاخبار في هذه السورة، وختم حديث اهل الكهف بما قضوه بانه « ثلاثمئة سنين وازداد واتسعا » وان الله اعلم بذلك اذ «له غيب السموات والارض »والتفت الى خطاب الرسول بان يتلوا ما أوحي اليه من القرآن وان يصبر « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» وان يقول الحق مبلغاً «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فللظالمين جهنم وللمؤمنين الذين يعملون الصالحات جنات «وحسنت مرتفقا » وضرب بعد هذا مثلا للمؤمن والكافر برجلين لكل منهما جنة في دنياه ذات ثمر، احدهما يتكل على الله ويعلم انها من نعمه، وآخر يغتر بنفسه وماله وولده، حتى اذا اهلكه الله تنبه الى حقيقته فاذا هو« يقول :ياليتني لم اشرك بربي احداً» وضرب المثل للحياة بزينتها وخضرتها ثم فناءها قائلا :«المال والبنون زينة الحياة الدنيا» والباقيات

الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »(٤٦) وذكر بعد هذا موت الناس جميعاً ثم حشرهم وحسابهم «فترى المجرمين مشفقين» مما في كتاب احصى كل صغيرة من عملهم و كبيرة «ولا يظلم ربك احداً» (٤٩) وحذر من هذا المصير استجابة لدعوة شيطان كان عدواً لهم منذ خلق الله آدم اباهم، وان الله سيقول يومئذ للمشركين: ادعوا من زعمتموهم شركاء، فيروا آنئذ بطلان زعمهم ومصير شركهم، وفي هذا تحذير قبل ان يروا ذلك كائناً «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل» ليقيسوا عليه ما هم فيه وما سيصيرون اليه، ولكن الذي يصرف الانسان عن العبرة والتدبر انه جدلي «وكان الانسان اكثر شيء جدلا» [٥٤] وان الذي يصد الناس عن الايمان رغبتهم بما كان عليه آباؤهم، ولكننا نرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، «ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق، واتخذوا آياتي وما انذروا هزوا» وحذرهم عاقبة ذلك ثم اتى على قصة موسى واجتماعه بعبد من عباد الله صالح لعله الخضر «آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» (٦٥) فهو يسير بمقتضى الحكمة التي تخفى على الناس بما فيه صلاحهم وهم يحسبون فيه شرا، فذكر قصته مثلا الايمان وحكمة الله وعلمه وما يخفى على الناس، تبيانا لعلم الله ورحمته وان الحق ما يأمر به لا ما يعرفون ولا سيما العوام ارثاً عن آبائهم، وانتهى من ذلك الى قصة ذي القرنين وهو رجل مجد يسمى مستفيدا

مما هيأنا له اسبابه في الحياة اذ «مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا» فسعى فاتحا مشرقا ومغربا يدفع فسادا عرفه الناس به، فمر بقوم شكوا اليه فساد جيرانهم فاستعانوا به عليهم فاقام لهم سدا من دونهم فلما أتمه قال: «هذا رحمة من ربي، فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا» وانهم سيخرجون فينتشرون في الارض ثم تكون القيامة فيجمع الله الامم، ويومئذ يرى جهنم «الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا» وانهم سيلقون فيها جزاء اتخاذهم من عباد الله أولياء يعبدونهم من دونه، وحذر من خسران اعمال الذين يحسبون في الدنيا» انهم يحسنون صنعا» ممن ضل سعيهم لفساد ما ياتون مغرورين وما يعتقدون كافرين، بان جزاءهم جهنم، واتى على ذكر ما يقابلهم من المؤمنين «الذين عملوا الصالحات بأن لهم الجنة»، وختم السورة بان لله كلمات لا تنفد، فيها علم وقدرة وحكمة وان الرسول بشر يوحى اليه بالوحدانية «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا» وبذلك ختم السورة بمثل ابتدأها به من عبادة خالصة لا شرك معها وفي خلال ذلك ذكر قصة نفر مؤمنين كانوا مستضعفين في قومهم هم اهل الكهف، واورد قصة مؤمن يرى نعمة الله فيما ملكت يده من جنات، ضرب الله به مثلا للعبرة، ومؤمن آتاه الله علما فهو يسير مع الحكمة الخافية اجتمع به موسى (ص) فرأى منه ما رآه، ومؤمن كان في سلطانه، وهو

ذو القرنين ،فهي سورة الايمان واهله والعمل الصالح بثمرته والتحبيب به ومن بعدها سورة مريم

مريم : سورة تقوى وبنوة وكلمات في ولادة وقرابة وحياة فيها آيات بينات تدعوا الى صراط مستقيم، تمثل من الايمان اهلا ، فهي مستهله بذكر رحمة الله على عبده انعم عليه بالنبوة وانعم عليه في اهله واسرته فوهب له يحيى على وهن عظم شيخوخته فكان «برا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا» (١٤) ثم اعقبه بذكر مريم وكانت في كفالته فتاة طاهرة متعبدة متبتلة «فارسلنا اليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا» (١٧) فذعرت منه فقال «انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا» فاستغربت ذلك كما استغرب زكريا من قبل ذلك لشيخوخته فقال لها «كذلك قال ربك هو علي هين» وان الله جعله آية فتكلم في المهد بما آتاه الله وبما امره به ، فكان في الحديث عنها حديث عن مؤمن ومؤمنة في موضوع يدل على قدرة الله مما ختم السورة الآمنة بالتنويه به وبالرسول الاعظم [ص] وآيات ربه موجزا بليغ القول في كلماته ،فكان بذلك الارتباط وبقاء التسلسل ظاهرا وختم قصة عيسى [ص] منتهيا الى التحذير من الاشراك بالقول بانه ابن الله «ما كان لله ان يتخذ ولدا ، سبحانه» وانما خلقه آية للناس ورحمة بقدرته وامره «واذا قضى امرا فانما يقول له : كن فيكون» حسب

مشيئته، واتبع ذلك بالدعوة لعبادة الله وحده ولكن الناس اختلفوا «فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم» ثم اتى على ذكر مثل آخر من امثلة الايمان بذكر ابراهيم وابيه آزر الذي كان يتخذ الاصنام كقومه عابدا لها، وما اخذه به ابراهيم من حلم ودعوة وما انعم الله به عليه بعد ذلك في اسرته فوهب الله له اسحق ويعقوب بنين وذرية طيبة ثم ذكر موسى وكيف انعم الله عليه بنبوة اخيه هرون معه ثم ذكر اسماعيل وادريس وغيرهما ممن يعبدون الله خاشعين وما كان من بعدهم اذ جاء ابناء اقوام «اضاعوا الصلاة» وهي عنوان العبادة الخاشعة «واتبعوا الشهوات» (٥٨) وذكر ماسيلقون من عقاب «الا من تاب وآمن وعمل صالحا» (٥٩) فانهم سيدخلون جنة وصفها معدة للاتقياء، ثم اتى على لسان جبريل بان مايفعله والملائكة انما هو بامر الله، وان الله لاينسى رسوله محمدا [ص] ملمعا بذلك الى تخلف الوحي عنه فيما كان يسأله المشركون عنه مما جاءت على ذكره السورة الآنفة من اخبار اهل الكهف وذي القرنين، وما نوه به من امر الروح في سورة النمل من قبلها «وما كان ربك نسيا» (٨٣) فالعباد الصالحون الذين ضرب بهم الامثال يجري بهم على سنته في الاحسان اليهم والى اهليهم في الدنيا قبل الآخرة، فما عليك يامحمد الا ان تعبد الله وتصطبر لعبادته فتنال على تلك السنة ثوابك من ربك

«هل تعلم له سمياء» (٦٤) وذكر من ثم انكار الحشر وما وراء ذلك من عقاب في جهنم «وقل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا، حتى اذا رأوا مايوعدون : إما العذاب وإما الساعة، فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا * ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا» (٧٤ ـ ٧٥) واتى بعد هذا معرضا بزعيم في المشركين هو «العاص بن وائل» الذي كان مغرورا بما هو عليه حتى قال «لاوتين مالا وولداً» فانه سنحشره يوم القيمة فرداً»، وذكر أن مشركي العرب قد اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً» (٨٠) ولكنهم سيكونون عليهم ضدا «يوم نسوق المجرمين الى جهنم وردا» ثم اتى على الذين اشركوا بقولهم «اتخذ الرحمن ولدا» (٧٨): فقال لهم: «لقد جئتم شيئا إداً * تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الارض، وتخر الجبال هداً» وان كل من في السموات والارض عبد لله سيحشره فالذين «آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا» (٩٥) وهذا القرآن داعية له جاء مبشرا الصالحين ومنذرا «قوما لدا * وكم اهلكنا قبلهم من قرن، هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا» وبهذه الروعة في دفع الاشراك ختم هذه السورة: فهي تتمم ماقبلها بمعانيها وفيها من قصص من انعم عليه «الرحمن» بايمانهم في اهليهم ومن سيهلكهم في كفرانهم مايعتبر

به مستبصر يقع من نفسه رائع البيان في مواقعه الساحرة تعرف للرحمن رحمته في نعمة الاهل والهداية الى طريق مستقيم ومايقابل ذلك من عناد كعناد آزر يأبى دعوة ابنه ابراهيم (س فيأخذه بير الابوة قائلا «ساستغفر لك ربي» او كعصيان المغرور (العاص بن وائل) اذ طلب من الدنيا مالا وولدا مما انعم الله به على المتقين ممن ذكرهم من الانبياء والمخلصين فلم ينعم بخير زائل يكون عليه وبالا في الاخرة اذ ياتينا «يوم القيمة فردا» فهي سورة نبوة بنعمها وهديها وكلمات إلهية بآياتها وآلائها، وهدى بامثلته في أسر يقابل في ضلال بامثلته وما تم من حكم الله فيهم جميعا اذ اعد للمتقين جنة كما اعد للمجرمين نيرانا. ومن بعدها سورة طه.

طه: سورة مستهلة بما يناسب سياق هذه السورة يجادل فيها عن الايمان بالله ويدعو اليه ويلزم بالصبر عليه بان الله قد اراد من ذلك التذكرة لمن يخشى دون ان يشقى الرسول في دعوته وقد انزل القرآن عليه «الذي لا إله الا هو له الاسماء الحسنى» وذكر للرسول حديث موسى وإرساله الى فرعون وقومه وما كان من ايمان السحرة بعد ان اجتمعوا باسم من فرعون يرجون القربى عنده ان كانوا غالبين، وما انذرهم به لايمانهم قبل ان ياذن لهم، وما امتن الله به عليهم من بعد ذلك وما كان من اشراك قوم موسى بعد ذلك واقامة تمثال «عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا

إلهكم وإله موسى »اذ كان في مناجاة ربه منقطعا للتعبد والاعتكاف في فترة بعدما امتن الله عليه باهلاك فرعون دون ان يروا وبعد هذا التمثال عن صفات الالوهية »افلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » وان هرون [ص] كان بينهم فغضب موسى [ص] عليه فاعتذر بان قد خشي ان يفرق كلمتهم بتبد من فعل ذلك فحرق موسى لهم التمثال ودعاهم الى وحدانية الله قائلا « انما إلهكم الله الذي لا إله الا هو وسع كل شيء علما ١٧ فأورد بذلك قصة فرعون بغروره ومصرعه والايمان ببرهانه وتأثيره ومايعرض من بعده من وثنية تقوم على الاوهام وخاطب الرسول (ص) بعد ذلك قائلا: « كذلك نقص عليك من انباء ماقد سبق، وقد آتيناك من لدنا ذكرا ٩٨- فحذر من الاعراض عنه وهول الحشر وعقاب المجرمين وما الى ذلك داعيا الى الايمان والعمل الصالح مبينا أن وحي القرآن دعوة الى الهداية بتحذيره « وكذلك انزلنا قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا » وذكر الغواية وما اصاب آدم -ص- ابا البشر ، وبين ان الحياة دائرة بين الشيطان واغوائه ودعوته الى الشر وبين الانسان وما امر به من فضيلة وسعي الى غاية مثلى وكمال منشود « قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى » اما من كان على عكس ذلك فله الخسران وأليم العقاب والمع الى من اهلك

من الامم الذين خلفوا من بعدهم واحتلوا ديارهم قائلا «ان في ذلك لآيات لأولي النهى» [١٢٧] وان كلمة الله اوجبت امهال قومك يا محمد [ص] «فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك» وامره بما فيه القدوة لاتباعه باسلوب ربه نعم الله عليه وتثبته في دعوته فيكون صابرا كما امر، فيهتدي الناس به ذاكرين ربهم دون ان يكون في شقوة من هذه المهمة، وبذلك يتقابل المعنى في بدء السورة وختامها ويكون ما بين ذلك ايضاحا وكان في هذه السورة [عن طريق عرض احوال امة بهدايتها وضلالها] تسقط المواقع التأسي والعبرة فيها، تثبيتا للرسول في دعوته، وختمت بآيتين فيهما تبيان معنى الرسالة وهدايتها انذارا من الله ورحمة لعباده قبل ان ينالهم عذابه ذلة وخزيا، متوعدا بما سيتضح في العاقبة «قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى» ومن بعد طه (وهو الرسول الاعظم) (ص) سورة الانبياء [صلوات الله عليهم]

طه مستهلة باقتراب الحساب وغفلة الناس عنه بالتلهي عن استماع الوحي وما فيه ذكرهم من ربهم واشارة لقولهم ة ان الرسالة لا تكون لبشر فهو سحر ساحر وشعر شاعر، اخذ بعرض اقوالهم واباطيل معتقداتهم ودفعها بمثل قوله تعالى «وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين * لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين * بل نقذف

بالحق على الباطل فيدمغه فاذاهو زاهق ،ولكم الويل مما «تصفون»
[١٦ ــ ١٨]مبينا للرسول انه يجري على سنة من قبله في دعوته وماامر
بتبليغه من وحدانية الله وألوهيته،واتى على ذكرخلقه ومايدل عليه من
السماء والارض ، وانتهى الى الانسان وحياته قائلا «كل نفس ذائقة
الموت،ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون»وذكر من بعد ذلك مافطر
عليه الانسان مما هو سبيل لضلاله قائلا«خلق الانسان من عجل سأريكم
آياتي فلا تستعجلون »(٣٦)ذاكراً ما ينكرون من البعث وما كان من
استهزاء بالرسل السابقين وما أصابهم بسبب ذلك وناقشهم في أباطيل
اعتقادهم بالالوهية وختم ذلك بما أمر الرسول بقوله « قل إنما أنذركم
بالوحي »-٤٤-وأتم الآية بتبيان إصرارهم قائلا «ولا يسمع الصم الدعاء
إذا ماينذرون»وحذر من حساب يوم القيمة وانتقل الى ذكر موسى
وهارون وماأوحي إليهما به «ضياء وذكرى للمتقين»وأن القران «ذكر
مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون» أيها الناس وقد دعيتم إليه نوراً لكم وتبصرة
وهداية ورحمة؟ثم عرض لذكر ابراهيم ووثنية قومه وكيف وقف منهم
بعد تكسير أصنامهم ثابتاً بايمانه حتى أرادوا إحراقه فانجاه الله،وذكر
بعد ذلك عدة أنبياء وما كان من قومهم وما انتهى اليه مصير كل منهم وما
أنعم الله به على المتقين ودعا الى التأسي بذلك والاعتبار به قائلا في الختام
«إن هذه أمتكم أمة واحدة »أمة هداية تجرى منذ الخليقة على طريق

مستقيم في اطراد الدعوة الى الله، آمرة بالخير ناهية عن المفاسد في العقائد والاخلاق والاعمال مما ذكره في عرضه الموجز لمن ذكرهم من الانبياء قبل آيات ،ودعا الى عبادته وحده مبيناً أخلاقهم وانهم «تقطعوا أمرهم بينهم»(٩٣)منبهاً أن مصيرهم اليه وماسيكون من حسابهم بجزاء المتقين وعقاب الظالمين منبهاً أن في دعوة الخير والصلاح عمارة الارض قائلاً ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون»(١٠٥)ذاكراموجزاً عن رسالة محمد(ص)رحمة للعالمين ومايقوله للذين يصدون عن دعوته «رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون»وبذلك ختم السورة فهي بموضوعها تتمم ماقبلها بعرض رسالات الامم وماانذروا به وما هي عاقبتهم يوم القيامه منذرة محذرة داعية الى الايمان بالله من غير إشراك به مبينة للمشركين في العرب ضلال العقيدة وسوء مصيرها .ومن بعد الانبياء سورة الحج

الحج سورة مستهلة بوجوب اتقاء الله لما في الآخرة من هول يوم المحشر وكان القول موجهاً الى الناس عامة أعقبه باثبات الحشر لهم بدليله من الحياة في الاطوار التي مر الانسان بخلقها وفي إحياء الارض بالمطر بعد موتها حتى ينبت فيها «من كل زوج بهيج» نباتا متناسلا نامياً فيه ذكوره وانائه«ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأن الله يبعث من في القبور»(٧)واعقب ذلك بمن لا يرى هذه البراهين من جهالة وضلال

فقال: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق» (٩-١٠) وهي فئة من الناس هذا شأنها لا تملم علماً ولا تهتدي برأي غيرها كتاباً ولا تستقي ما تقول به من كتاب سماوي غروراً منها وكبرياء وضلالاً حتى تستوجب عقوبة في الدنيا والآخرة ، وقد كان سبب نزولها ما كان يجادل به الرسول في هذا الصدد من مثل (النضر بن الحارث) وانتقل بعد ذلك من سوء التعبد قائلا : «ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير [بعد اسلامه] اطمان به [الى دينه وعبادته] وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة» برجوعه الى وثنية ضرها اقرب من نفعها ، بيد ان الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، (١٤) ثم من حسب أن ما يعوته في الدنيا بخيراتها من ورائه ايضاً فوات الآخرة بجناتها «فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» فان عدل الله قد جعل من وراء الدنيا آخرة والمثوبة فيها بيده تجري على إرادته وفي اعتبار ذلك هداية ، والذين اختلفوا بذلك من اهل الاديان فسيفصل الله بينهم يوم القيمه فيتضح لهم ما كان حقاً ، «ان الله على كل شيء شهيد (١٧) يعرف معتقد كل فئة وتعبدها وما هي عليه من خطأ او صواب وهدى او ضلال ، وأتى على ذكر مخلوقاته التي تفيه حق عبادته ثم نوه بالانسان

وما سيصيبه من عقاب الجحيم لكفرانه وخروجه على نظام هذه الفطرة والكائنات المخلوقة وهو منها يجري على نظامها ، واعقب ذلك ثانية عما ينعم به «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (٢٣) ثم خصص من العبادات التي يصد عنها الكافرون «المسجد الحرام» بالحج والصلاة صدوداً عن سبيل الله ثم ذكر مكانة البيت واعار فصت قوائمه للعبادة والحج واتى على ذكر مناسكه الاسلامية وحالة المؤمنين النفسيه في قيامهم بها «الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم »من خشيته « والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون »(٣٥) وبين ان المقصد من تلك الشعائر والاضاحي (التقوى)«لن ينال الله لحومها ، ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم »(٣٧) فثمة الغاية من العبادة وهي الكلمة التى تدور في كل مقصد تنطوي على خلق قويم وعمل صالح واعتقاد منير راسخ واوضح بعد ذلك مامر به من وفاء المؤمنين حقهم في دنياهم وانتقل الى ذكر القتال باسبابه الداعية اليه من دفع الظالمين وصدودهم عن اقامة شعائر الدين وكرر وعد الله بالنصر والتفت بالخطاب الى الرسول بانه ان كذبه قومه فله العبرة عن سبق من الامم الخالية« افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٤٦) ونبه على ان الرسول نذير وذكره بالعصمة رغم انه بشر في طبيعته «اذا

تمنى القى الشيطان في امنيته،فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم آياته »
ذاكراً ان الكافرين في مرية «حتى تأتيهم الساعة بغتة او يأتيهم عذاب
يوم عقيم »(٥٥)وانم في الآيات التالية ماكان بصدده من المعاني من
ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين واخذه كلا بما عمل في الدنيا والآخرة
وجعله ذلك سنة «ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان
الله لعفو غفور»(٦٠)واتى على ذكر قدرة رب العالمين ودعوته الى الحق والى
احكامه نظام الحياة والارض وجعله مناسك العبادات عنز لتها ثم اتى
على العبادة لغيره قائلا «ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما
ليس لهم به علم »-٧١-فبين انها عبادة كفر وجهالة وهي لمن لايخلق شيئاً
ولو صغيراً كالذبابة من عجز لاتليق معه عبادة صاحبه عبادة تدل على انهم
«ماقدروا الله حق قدره»واتبع ذلك بالتنويه بمن اصطفاهم للدعوة والعبادة
من الملائكة والرسل ودعا المؤمنين الى اداء عباداتهم وان يتكلوا
على ربهم فختم السورة بقوله «ياايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا
واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في سبيل الله
حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم
هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم
وتكونوا شهداء على الناس، فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة اعتصموا بالله
هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»٧٦-٧٨فهي سورة العبادة والتقوى على

هدى و بصيرة من الله، ثوابها من الدنيا و الآخرة و ان من صد عنها و آذى اهلها فله العقوبة و ان لمن او ذي اما الصبر و الصفح و اما المقابلة بالمثل دفعاً للشر و ان النصرة الالهية له و خص البيت الحرام و مناسك الحج لانها كانت في صدر الدعوة الاسلامية ومدارها يلقاه المسلمون من ايذاء و نكال شديد لايمانهم بربهم و عبادتهم له. ومن بعد سورة الحج المؤمنون

المؤمنون سورة مستهلة بذكر فلاحهم وما هم عليه من عبادة وعفة و نزاهة وحسن خاتمة فهم بذلك اكمل الناس خلقا في الدنيا واكرمهم علية في الآخرة فهم صفوة الانسانية، وما انتهى من ذكرهم عما هم عليه من ايمان و عبادة و اخلاق وما سيصيرون اليه في فردوس الخلود حتى فصل في ذلك فذكر الانسان بخلقه و اطواره وما انعم به عليه مما يأكله من الفواكه و الانعام، وما ارسل اليه من الرسل و ذكر منهم نوحاً و قومه مذ دعاهم الى ان اهلكهم الله بذنوبهم و بعدهم عن الايمان الذي دعا اليه، ثم ذكر موسى و اخاه عيسى و امه وما دعوا اليه مما فيه خير الدنيا و الاخرة بقوله تعالى «يا ايها الرسل كلوا من الطيبات و اعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم» (٤٩) و ان ذلك موجز دعوتهم التي تجعل المؤمنين على اختلاف أجناسهم و عصورهم أمة واحدة «و أن هذه أمتكم أمة واحدة و انا ربكم فاتقون» ٥٠ - و لكنهم بدل ذلك اتبعوا ما فيه تفرقتهم «فتقطعوا امرهم بينهم كل حزب بما لديهم فرحون» (٥١) وهم من ذلك في غمرة «حتى حين» و أنهم

سيصيرون من بعدما ينعمون به من الخير الى مالا يحمدون لان ماهم عليه ليس من الايمان باخلاقه «ان الذينهم من خشية ربهم مشفقون» (٥٤) ممن لايشركون ويخشون يوم بعثهم وحسابهم «أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون» (٨٧) وأتبع ذلك بما يبين الحد الذي يؤخذ المرء بالحساب عليه، لما في الناس من افراط وتفرط تنبيهاً وتحذيراً قائلا: «ولا نكلف نفسا الا وسعها» واتبع ذلك باقامة العدل ذاكراً ما لديه من كتاب «ينطق بالحق» فيما كان عليه المرء في دنياه وما سيناله الظالمون ممن يقال لهم «قد كانت آياتي تتلى عليكم، فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون» (٨٤) بديل تدبره، وقد جاءكم على سنة البعث رسول يحذركم كما جاء آباءكم رسلهم، واتى على بعض تقولاتهم من ازورار عن الدعوة قائلين بأن ما يزعمه الرسول من جنة مع انه جاءهم بالحق ولكن «أكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن» ، وحسبك من ضلالهم أنا انزلنا القرآن عربيا فيه سمو مكانتهم وتخليد ذكرهم عاطراً بين الناس لو استجابوا له ومع ذلك «فهم عن ذكرهم معرضون» (٨٨) ولست يا محمد تسألهم مضرما او تكلفهم شططا «وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم» وذكر السبب في ذلك منبهاً الى ما بين الايمان بالآخرة واستقامة السيرة من صلة قائلا : «وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» (٩١) لان النظر الى الدنيا

وحدها دون اعتبار آخرة من بعدها لايكون معه إلامافيه مفسدة من طمع بلذات، واخذ بضروب الأثرة مع غفلة عن أعقاب الامور ومصائر الحياة، وان الرحمة لاتليق بهم لانها مدعاة لجاجهم وطغيانهم بل العذاب لم يؤثر فيهم «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون» ولكنهم سيرون اشد مما نزل بهم «حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون» (٩٤) في فجيعة وانكسار ويأس بعد أن كفروا النعمة ونسوا الاخرة وان الحياة والموت بيد الله قائلين بأن البعث من اساطير الاولين، رغم علمهم بأن الارض والسموات وباقي الملكوت لله وأن السلطان له ولا راد لأمره «وهو يجير ولايجار عليه» وقد آتيناهم بالحق فكذبوا على الله فيما قالوا به من اتخاذ ولد ووجود شريك له ثم وجه الخطاب بعد ذلك بما يجب أن يقوله ويسلكه مع المشركين قائلا فيما قاله: «إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون، وأستعذ بالله من همزات الشياطين، وقل: اعوذ بك رب ان يحضرون» (١١٥) لان مصير ذلك منذ الوفاة واضح حتى يتمنى المرء ان يعود الى الحياة قائلا: «لعلي اعمل صالحا فيما تركت» وليس له ذلك «ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون» فيحاسبون يومئذ ويلقى الضالون عذابهم وجزاء سخريتهم بالمؤمنين الذين هم يثابون اليوم «بما صبروا» (١٢٥) وختم السورة بتذكيرهم بجملة حياتهم التي تمضي سريعاً وهم يغفلون عما وراءها «أفحسبتم انما

خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق، لا اله الا هو رب العرش الكريم » وان للشرك بالله والكفر يوم الحساب «وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين »

فهي سورة الايمان واهله ومن كان مشركا من ورائهم وفي هذا تبيان لسبب تسمية السورة ودلالة على موضوعها ومن بعدها سورة النور

النور سورة مستهلة بالتنويه بما فيها من آيات وتذكرة تنويهاً بما ستأتي عليه من حكم الزنى والملاعنة وما كان من افك افتري به على زوج الرسول الاعظم (ص) السيدة عائشة (ض) وما كان من اذاعة المنافقين له خاصة، حباً بان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا مبيناً وجه الحكمة الالهية في هذا الحادث من حيث النتيجة قائلا: «لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» (١١) وان فضل الله ورحمته شملت من تعجل بسوء ظنه وتقوله بدون ان تكون له بينة على ذلك، وردد هذا المعنى زجراً عن العودة لمثله لما فيه من فساد تسوء به العواقب والفتن، وخاطب المؤمنين بعد ذلك ناهياً عن اتباع الشيطان تعميما للقول وما يدعو اليه من فحشاء ومنكر مخصصاً النهي عن حلفة تحول دون احسان مما كان من ابي بكر [ض] اذ آلى ان لا ينفق على ابن خالته [مسطح بن اثاثه] وكان من العصبة التي خاضت في حديث الافك، وكان فقيراً ينفق ابو بكر عليه مرغباً بالعفو بقوله « ألا تحبون ان يغفر الله لكم ان الله غفور رحيم «(٢٢) وهي حادثة كانت

من جراء الافك وحديثه انزلها تعالى من هذا الحديث بمنزلتها تبياناً لما يكون في مثلها لتكون للمسلم درساً وعبرة فيما يتوجب عليه، ونهى عن الافك وأوجب في ادعاء الزنى البينة والتلاعن حتى إذا كان شيء رغم ذلك فان كمال الخلق يستوجب أن لا يندفع من كانت له صلة بهذا الافتراء مع شعوره وغضبه بل يأخذ بهذه السنة فيعفو ويصفح ما كان في ذلك خير دفعاً للفساد في الارض، وهكذا تنزل الحادثات الخاصة بل وجميع القصص في القرآن منزلة الاعتبار وهي امثال للناس وحياتهم وما يعرض لهم في دينهم ودنياهم، ومن هنا كان لها من الأثر مالا يقع المرء عليه في قول مجمل ودعوة الى الخير عامة ونهي عن الفحشاء والمنكر بايجاز من غير هذا القصص المفصل لما في طباع الناس من قوة الفهم اذ تكون بادراك المحسوسات اكثر من ادراك الاقوال النظرية والقواعد الكلية، ولما للمرء بغيره من بني البشر من اسوة حسنة تبلغ في نفسه قرارتها، فالناس للناس قدوة في خير وشر، وتتابعت الآيات بعد ذلك بالنهي عن الافتراء مبينة في الزواج ان الخبيثين للخبيثات والطيبين للطيبات وانتقل الى ما يتصل مباشرة بالحياة الزوجية وهو المسكن فاوجب حرمة المنازل وغض البصر وحفظ الفرج ونهى عن التبرج وابداء النساء زينتهن لما في ذلك من اغراء قد ينتهي بما لا تحمد عقباه ورغب بالنكاح قائلا «وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من

فضله والله واسع عليم » (٣٢) واعقب ذلك بدعوة الى التعفف واتم ذلك بما فيه للعبيد رحمة واطلاق من رق بالمكاتبة بعد ان دعا الى تزويجهم لتكون حياتهم في انفسهم وتكوين اسرهم على خير حالة ، ونهى عن البغاء واكراه الاماء عليه كما كان ذلك في الجاهلية عند بعضهم اكتسابا للمال باستثمار عفتهن وختم ذلك مبينا اهمية هذه الاحكام بقوله : «ولقد انزلنا اليكم آيات بينات» واتم هذه الآية بما فيه تنبيه الى ان ماتى على ذكره في هذه السورة كانت له فيما خلا من الايام اشباه بما ذكره القرآن كحديث مريم في النساء ويوسف في الرجال قائلا : «ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين» وانتقل في الآية التالية الى افق اوسع في تبيان اهمية آياته بان فيها نوراً للناس وتبصرة من الله «الله نور السموات والارض» وضرب المثل لهذا النور بما فيه «نور على نور» قائلا «يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم» فايذكره لهم انما هو على علم بما فيه هدايتهم وخيرهم ، واعقب ذلك باخلاق من اخذ بالهداية التي دعا اليها من ذكر الله حتى لا يغفل عنه ومن تسبيح لمعرفته بالله وما هو له اهل ، هذا الى اشتغاله بالدنيا والاقبال عليها بالتجارة وما اليها بحيث لا تنسيه واجبه فتلهيه «عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة [لانهم] يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار» فهؤلاء يجزيهم الله «احسن ما عملوا ويزيدهم

من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » (٣٨) واتم هذا المعنى بما يقابله من اعمال الكافرين وانها « كسراب بقيعة» او « كظلمات » « بعضها فوق بعض »على عكس مافيه هداية الله من «نور على نور » بما سبق ذكره بآيات،واتبع ذلك بان تسبيح الله نظام في الحياة في الارض والسماء « ولله ملك السموات والارض والى الله المصير » ونبه على قدرته وما يوجب ذلك تنبيها فيه برهان على الألوهية وهدايتها ووجوب تقديسها وهي تمد الأسباب بمثل تراكم السحاب حتى تحيى به الأرض ، ذاكرا تعالى سلطانه في خلقه وتنويعه له خاتما ذلك بما فيه دلالة على آياته وهدايته بأنها كنظام هذه الكائنات ان اتبعت «لقدانزلنا آيات بينات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم»(٤٦)وهي آيات بينات لمن هداهم الله فآمنوا، ولذلك أتبع حديثهم بحديث من يتلبسون بالايمان من المنافقين آتياً على ماكان منهم (بمثل حديث الافتراء الآنف) من فرارمن الرسول وحكمه حين لايكون الحق لهم ومن فرارهم من الخروج الى الجهاد، معقباً ذلك بمايلازم اطاعة الله ورسوله قائلا:«وإن تطيعوه تهتدوا،وما على الرسول إلا البلاغ المبين»ذاكراً مايكون من هذه الاطاعة من خير في الدنيا والاخرة بما تستلزمه بقوله «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم

وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » (٧٥) حتى اذا انتهى مما يناسب ذلك من اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتأكيد الطاعة لرسوله وتبيان قدرته تعالى على الوفاء بوعد النصرة بتوهين شأن الكافرين في الارض بقوله « لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض ، ومأواهم النار [فضلا عن ذلك في الاخرة] ولبئس المصير » (٥٧) ذكر بعد ذلك ما يتمم حكم ما كان بصدده من حرمة المساكن فأوجب الاستئذان وأوفى القول حقه بما يلازم ذلك بذكره حق المؤاكلة ولا سيما من بيوت ذوي القربى الادنين والاصدقاء المخلصين وما يناسب ذلك مما اختتم به هذا القول «فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون» (٦١) ورجع الى ذكر خلق من اخلاق المؤمنين ممن ذكرهم قبل ذلك باطاعة الله ورسوله فنبه الى لزوم اجابتهم لدعوته والبقاء في مجلسه اذا دعاهم لامر جامع فيه مصلحة عامة وختم السورة بقوله «ألا ان لله ما في السموات والارض قد يعلم ما انتم عليه ، ويوم يرجعون اليه ، فينبؤهم بما عملوا والله بكل شيء عليم»

فسورة النور اتمت اخلاق الايمان وما يلابس عيشهم وما يعترضهم في الحياة الخاصة والشؤون المنزلية من الاحوال الزوجية

والبيتية وما يعترضهم في الحيـاة العامة من كيد المنافقين وما يجب عليهم في ذلك مما فيه تمام معاني السورة باغراضها ومن بعد النور سورة الفرقان

الفرقان وهو القرآن يبين حدود الله ويفرق بين الحق والباطل فهو نور من نور الله هدى الناس اليه وانذرهم عا فيه وبهذا استهلت السورة معقبـا براًس ماانذروا به من اعتقاد بالوحدانية مع برهانه ،بانه تبارك وتعالى :«له ملك السموات والارض ».. وخلق كل شيء فقدره تقديراً ،ذاكرا ماتقوله المشركون بشان القرآن من زعم افترائه وانه اساطير الاولين فرد عليهم بقوله :«قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض» (٦) ولهذا كان فيه الاخبار عن المغيبات الماضية والآتية وما في النفوس من خبيثة لان الذي انزله يعلم كل سر فلايخفى عليه خافيه ،وفي هذا وجه من وجوه اعجازه ،وقالوا غير هذا بان رسول الله بشر كالبشر وليس له كنز ولا حائط ولا بستان وانه رجل مسحور ،فرد عليهم وانذرهم بالاخرة يوم يؤتى بما يعبدون من دون الله «فيقول :أأنتم أضللتم عبادي ام هم ضلوا السبيل ؟ قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ، ولـكن متعتهم وآباءهم حتى نسـوا الذكـر وكانوا قوما بوراً» (١٧) وطلبوا نزول الملائكة بالوحي فذكر لهم اي يوم ينزلون « يوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا * لقد

اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني ، ثم اتبع ذلك بما يشتكي منه الرسول من قومه اذ «اتخذوا هذا القرآن مهجوراً »(٢٩)وما طلبوه بشأن القرآن من انزاله دفعة واحدة ، فبين الحكمة في نزوله منجماً كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً» (٣٢) وسيرون ما كان يجب اتباعه؛ اذ يحشرون على وجوههم الى جهنم» (٣٣) واتبع هذا بذكر موجز لامم خلت اهلكهم الله وما فيه من عبرة تغافلوا عنها «ولقد اتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء [سدوم من قرى الشام كانت لقوم لوط] افلم يكونوا يرونها ؟ » بلى ولكنهم منصرفين عن ذلك كله اذ «كانوا لا يرجون نشورا» (٣٩) فهم ان سمعوا داعيا للايمان جزعوا قائلين : «اهذا الذي بعث الله رسولا * ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها» (٤١-٤٢) فهم قد اتخذوا آلهتهم اهواءهم فدعهم فانهم لا يعقلون «إن هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا» بانصرافهم عن عبادة الله الذي ترى آياته في خلقه ،وذكرهم بذلك في قرآنه «فأبى اكثر الناس الا كفوراً» وامره بالتوكل عليه وانه جعل الايام تباعاً «خلفة لمن أراد ان يذكر او اراد شكوراً» (٦٢) واتبع ذلك بما يجب على المؤمنين بالرحمن من استمساك به فذكر من الاخلاق اسماها واكملها مما فيه خير الدنيا والاخرة «خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً» ،وختمه بآية تبين معنى العبادة ومصير الانصراف عنها باسلوب زاجر

بعد أن مهدله بما سبق تمهيداً نفسياً ليناً جاءت الخاتمة من بعده كأنها مفاجأة ليكون الانذار ابلغ اثراً بالتفاته السريع: «قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم» فسوف يكون لزاما» فهي سورة تبين دعوة القرآن وما قيل فيه آتية على ذكر العقيدة والرسالة والوحي وطريقة نزول القرآن منجما وما يأمر به القرآن وماهي اخلاق الايمان عرضا وجدلاً وبرهانا يتصل بالنفوس لتؤمن به وترى الكمال بدعوته وفي هذا المقصد وحده موضوعها على تعدد هذه الاغراض المتلاصقة كأجزاء يتمم بعضهم بعضا تجعل لكل آية مكانتها مما بعدها وما قبلها في معناها على تنويع في الاسلوب بما يترك في النفس أثرا ويمهد لكلمته بما يجب ان تكون عليه في الاية التالية كما رأيت في آية الختام بمراعاة ماتتركه الايات السابقة لها من اثر. ومن بعد الفرقان سورة الشعراء.

الشعراء. الشعر فرقان العرب وديوانهم الجامع لما بلغوا اليه في بيانهم ومدار كهم وعواطفهم، استهلت سورة اربابه هذه بذكر الكتاب المبين واثر صدود المشركين في نفس الرسول قائلا، «لعلك باخع نفسك [مهلك لها] ألا يكونوا مؤمنين» [من فرط اهتمامك وتاسفك] «ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لهم لها خاضعين» ولكن الحكمة الالهية لم تستلزم ذلك فارسلناك رسولا ليؤمن بك من يؤمن بدعوتك على هذا الاسلوب الذى تراه والطريقة التي تتبع، ثم

ذكر إعراضهم وما في الارض من آيات انصرفوا عنها وهي داعية ايمان، واتبع ذلك من صفات الله بما يناسب الايمان والكفران الذي يكون عليه الناس قائلا «ان الله لهو العزيز الرحيم» (٩) ثم اتى على ذكر رسالات وامهما وكيف اهلكها واسهب فيها اسهاباً يعرض لتاريخ شعوب في الايمان وكفرانها مبتدئا بذكر موسى وفرعون ليرى الرسول الاعظم ماهو مقبل عليه في دعوته وماذا تكون العاقبة فيكون له بها عبرة وسلوان، وقد تأسى الرسول (ص) بموسى فيما اوذي به فقال في احد مواقفه (يرحم الله اخي موسى لقد اوذي اكثر من هذا فصبر..) وهي قصص تردد في سور كثيرة كل سورة بالاسلوب الذي يتفق والغرض الذي سيقت له. وقد تتشابه في نقاط وتختلف في أخرى، حتى انتهى من ذلك بالآية (١٨٨) وكرر قوله: «وان ربك لهو العزيز الرحيم» لاينال من عزته عصيان هؤلاء القوم من الكافرين وانما عاملهم والناس جميعاً بالرحمة، وتلك سنته فيهم حتى اذا استوفوا حظهم من سعة رحمته اخذهم مأخذ العزة ونصر دينه واعز رسوله في عاقبة حميدة، فهذه الاية جعلها لازمة ينتهي بها في هذه السورة حديث كل قوم اتى على ذكرهم ثم رجع الى ماابتدأت به السورة مما ساق له ذلك القصص في مساقه فذكر القرآن وأنه وحي من الله وأن على الرسول أن يدعوله أهله وأن يخفض للمؤمنين جناحه وأن يتكل على الله الذي يرى جهده

وختم السورة بان دعوة القرآن وحي من السماء معرضا بما كان الشعراء عليه في شعرهم وغوايته وهم من قومهم رؤوس عناد وصدود مستثنيا اهل الايمان منهم وانهم في هجائهم منتصفين لا معتدين وختم ذلك بقوله «وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون» ومن بعد الشعراء سورة النمل

النمل سورة مستهلة بالتنويه بالقرآن وآياته وأنه هدى «وبشرى للمؤمنين» ووصفهم بآيات ثم خاطب الرسول قائلا : «وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم» وأتبعه بمن اوحى اليهم حكمة وعلما من قبله ليكون في الاستقراء والدليل التاريخي برهان لمن لم يؤمن، فذكر موسى والوحي عليه وما كان من مصير فرعون وقومه اذجحدوا بما جاءهم به من الايات وقد استيقنتها انفسهم، وكان ذلك منهم «ظلما وعلوا» ثم ذكر داود وسليمن وافاض بما أوتيه سليمان وكيف دعا بلقيس للايمان بدينه وكانت مع قومها تعبد الشمس واراها معجزات الله على يديه بما آمنت به بعد ان قال لها من تستشيرهم من قومها «نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد» (٣٣) معتمدين على قوتهم وبأسهم ثم ذكر قصة صالح في قومه ثمود اذ تآمر عليه تسعة رهط ممن كانوا «يفسدون في الارض ولا يصلحون» (٤٩) فأهلكهم الله بما ظلموا ثم ذكر لوطا وقومه وما نهاهم عنه من فاحشة «فما كان جواب قومه الا أن قالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون» فكان في تهلكتهم جميعا

وفيها ذكر من الانبياء واخبارهم برهان الوحي على خاتمهم مؤيداً بمصير من صد عن دعوة الله، كان البرهان التاريخي اولا بقصة موسى وسليمان وكان فيما تبع ذلك بقصتي صالح ولوط، وختم الاخبار بخطاب الرسول (ص) «قل : الحمد لله [على الهداية، النصرة] وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون» [٥٩] واتبع ذلك بآيات خلقه الدالة عليه واتبعه ببعض اقوالهم والرد عليها وانتهى لقوله «قل سيروا في الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين» (٦٩) وكان في خلال ذلك يخاطب الرسول بما يثبت فواده كمثل قوله «ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون» (٧٠) ثم خص القرآن بانه «يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون» «وانه لهدى ورحمة للمؤمنين» (٧٧ ٧٨) وختم متوعداً - (بعد تلك البراهين التي تدل على صحة وحي القرآن ووجوب الاستجابة لدعوة الرسول ورده على اباطيل معتقداتهم بما - (سيلقون» حتى اذا جاؤا [يوم القيمة] قال [تعالى لهم] اكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً، ام ماذا كنتم تعملون» (٨٥) وبين ان الحجة ستقوم عليهم بذلك مؤيدا له بما اتبعه من ذكر آياته كمثل قوله: «الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً؟ ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون» (٨٧) وذكر من شؤون الاخرة ايضا ما ذكر واوضح المعيار في يوم الحساب بقوله «من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت

وجوههم في النار ،هل تجزون الا ما كنتم تعملون »(١ ـ٩٠)وختم السورة بخطاب الرسول عما أمربه من عبادة الله الذي له كل شيء«وان اتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل: إنما انا من المنذرين»(٩٣)الماعاالى مصير كمصيرمن سبق ذكرهم ممن انذروا فكفروا فاهلكوا «وقل الحمد لله سيريكم آياته ،فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون »(٩٤)

فهي سورة فيها برهان وحي القرآن ووجوب الاستجابةللرسول والدليل على المعتقد الذي يدعو اليه ومعيارالحساب الذى ينذربه وكلها تدورحول موضوع واحدموجزهان هذاالقرآن وحي فآمنوااوتخسروا، ومن بعد النمل سورة القصص

القصص سورة مستهلة بالتنويه بآيات الكتاب المبين وان ما يتلى على الرسول الاعظم فيه من انباء موسى وفرعون مايكون عبرة وتثبيتا للمؤ منين،واتى على استكبارفرعون ومعاملته بني اسرائيل ثم نشأة موسى عند فرعون وان اهلك الله فرعون وختم ذلك بما فيه التنبيه الى القصد من ايراد ذلك بأن جاء كتاب موسي من بعدما اهلك تعالى القرون الاولى التي لم تؤمن بما اوحي اليها«بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» (٤٢)ونوه بما في قصة موسي من امور كانت مجهولة عند العرب لا يعلمها الرسول ولا قومه دلالة على أنها وحي من عندالله، وذكر أن الله ارسله لئلا

«تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم، فيقولوا: ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين» (٤٧) وانه لما ارسل إليهم محمدا (ص) بالحق من عند الله: «قالوا لولا أوتي مثل ما اوتي موسى [من الآيات المعجزة] أولم يكفروا بما اوتي موسى من قبل؟ قالوا: سحران تظاهرا، وقالوا: انا بكل كافرون» ثم انا هم بما هو أسد في الحجة بتبيان مقصده من دعوته الى القرآن قائلا كما علمه ربه «قل: فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما [من القرآن والتوراة] اتبعه «ان كنتم صادقين» * فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، ان الله لا يهدي القوم الظالمين» (٥٠) ثم نوه بالقرآن ومن آمن به وذكر من صد عنه مخاطباً لهم بما فيه تذكرة وزجر بمثل قوله: «وما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون» (٦٠) واتى بآيات تفي هذا القول حقه وألحقه بمثل يدعمه ممن اوتي خير الدنيا فبطر بأن ذكر قارون من قوم موسى وما كان مصيره في الهالكين وقد قيل له: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، واحسن كما احسن الله اليك، ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين» (٧٧) فابى قائلا «إنما اوتيته على علم عندي» فهو مال جاءني بجهدي وكدي ودربتي فيما يثمره واندفع فيما نهى عنه فاهلكه الله «فخسفنا به وبداره الارض» حتى

اصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ،لولا ان من الله علينا لخسف بنا ،ويكأنه لا يفلح الكافرون ، (٨٢) ولما انهى الحديث بشان الدنيا وما يغوي فيها مما يصرف عن الاخرة قال :«تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »(٨٣)وختم السورة بالقية الرسول من هجرة ترك فيها بلده بسبب دعوته للقرآن ذاكراً فيه فضل الله عليه بما اوحي به اليه وان يصبر لهذه الدعوة فلا يتوانى في ذلك فيكون «ظهيرا للكافرين»،وأن يدعو لوحدانيته «كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون»،فهي سورة تذكر الايمان وما يصرف عنه وتضرب المثل لكلا الحالين بما فيه العبرة ومن بعد القصص سورة العنكبوت

العنكبوت سورة مستهلة باسلوب قوي بالغ بان الايمان لابد له من برهان في احتمال ما يأتي بسببه ،«الم *احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ،وان ذلك سنة في الحياة«ولقد فتنا الذين من قبلهم ،وألحقها بأن من صد عن الايمان عائد الى ربه فيحاسبه «ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه»،باحتماله في سبيل عقيدته ما يحتمله لما في ذلك من رفعة ومثوبة،وان عليه ان يصبر حتى اذا جاهده والداه فعليه مع معاملته لهما بالاحسان ان لا يطيعهما بالكفران كما كان مع سعد بن ابي وقاص اذ آلت امه ان لا تطعم ولا تشرب (وكان بها براً) حتى يرجع عن

اسلامه فابى، وكان ذلك شرعة الله، واتبع ذلك بما يكون من ضعفاء الايمان والمنافقين ممن إذا أوذي في الله لم يصبر ونكص على عقبيه حتى إذا رأى المسلمين بخير في غنيمة ونصر قال: «إنا معكم» مبيناً أن الصدود عن الايمان قد يتقابل بدعوة الكافرين للذين آمنوا إذ يقولون لهم «تبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» تحذيراً للمؤمنين بتبيان تبعة كل امرئ على نفسه، واتبع ذلك من أخبار المرسلين وامهم بما يدعم في النفس أثر الاحتمال في سبيل الايمان والذياد عن العقيدة، واورد في خلال ذلك من الآيات ما فيه برهان الايمان والهداية بمثل قوله تعالى: «قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة» دعماً للبعث ببرهانه من الخلق وأن من بعد الحياة نشوراً وحساباً، وختم ما ذكره من أخبار الماضين بقوله: «فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الارض، ومنهم من اغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون» (٣٨) ثم ضرب المثل قائلا: «مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء [اطمئنوا الى نصرتهم] كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت» (٣٩) وبهذا سميت السورة، وأتبع ذلك بما فيه تنبيه العقل وإيقاظ النفس بتبيان دواعي الايمان قائلا فيما قاله: «خلق الله السموات والارض بالحق، إن في

ذلك لآية للمؤمنين » (٤٢) وانها دليل الوحي الذي يأمر بالصلاة «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[لما فيها من ذكر الله بالتوجه اليه والوقوف بين يديه، فيذكر المرء ما احل الله وما حرم ويقيس على ذلك ما فعل فينيب الى ربه ان لم يرتفع في مقام عبادته هذه درجة على درجة بما يرى من آية الايمان بمناجاة ربه وذكره له] ولذكر الله أكبر »في مفعوله من النهي عن الفحشاء والمنكر ، لانه طريق يرتفع بالانسان الى درجات فوق الحياة بسفاسفها ومساوئها بما ينبه من ضروب التيقظ والوجدان والسعي لاكتساب الخير والمعالي فاوضح بذلك القرآن ما يجب على الانسان ثم عطف على من يصد عن دين الاسلام قائلا« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن، الا الذين ظلموا منهم وقولوا: آمنا بالذي انزل الينا وانزل إليكم ، وإلهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون »(٤٥) داعياً الى تألفهم بوحدة العقيدة فيما يتحد به معهم ، ثم ذكر ما كان ممن انكر الدين الاسلامي وقرآنه ووحيه ، وما طلبوا من آيات معجزة فرد على ذلك بقوله: اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »(٥٢) وفوض الامر الى ربه وان عذابهم عائد اليه وسيحشرون فيجزون بما يستحقون ، واتى على دلائل الالوهية ووجوب الايمان بادلة من خلقه آخذاً بجدل بعض الكافرين تأييداً لما هو بصدده من دعوة الى الايمان بالله قائلا بعد ذلك: « وما

هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان [فيها الحياة بخلودها] لو كانوا يعلمون» (٦٢) ثم ذكر من نعمه ما ذكر وخص بالذكر حرمة الكعبة تهوي اليها الانفس منذراً من افترى بأباطيل المعتقدات على الله قائلا: «أليس في جهنم مثوى للكافرين» متبعا ذلك بما فيه ختام السورة بما يناسب موضوعها ومطلعها بقوله: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» فهي بموضوعها سورة ايمان وصبر عليه ودعوة الى معتقد بتبيان بعض تعاليمه وما يؤيد هذا الايمان بالله ووحدانيته في خلقه ومن بعد العنكبوت سورة الروم

الروم سورة مستهلة باخبار المؤمنين بما يسرهم من نصرة الروم وهم اهل كتاب على من كانوا يحاربون من الفرس وهم وثنيون عباد نيران اتماما لما سبق ذكره في السورة الآنفة من صبر ومجاهدة على العقيدة بذكر الحروب ومكانتها من الحكمة الالهية وقدره في نظام هذا الغلاب ونصره من يشاء مبيناً ذلك وعد الله بما سيكون بعد بضع سنين «وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن اكثر الناس لا يعلمون» (٦) وكان ذكر هذا الحادث لما ابداه المشركون من الشماتة بظفر الفرس الوثنيين على الروم من النصارى اهل الكتاب، وانتقل من هذا الحادث الجزئي الذي (اتى به بمناسبة السورة الآنفة والحادثة الداعية) الى ما يتصل بموضوعات القرآن العامة،

فذكر جهل الناس بما اعد الله وحكمته مستدركا مايعلمون من شؤون دنيوية سطحية قائلا «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» واتبع ذلك بما فيه برهان هـذه الجهالة باسلوب يثير في الانسان فضل عقله ويوقظ حسه ووجدانه بقوله «او لم يتفكروا في انفسهم ، [فيعلموا أن] ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى» مما يستدعي (لاقامة الحق وانتهاء إجل الحياة الدنيا) مومئا وبعدا الى ماىناسب ذلك من ذكر الآيات الكريمة الكونية والنفسية الدالة على الالوهية والوحدانية فمن ذلك قوله :

«ومن اياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين» (٣٥) مبينا في ذلك مكانة العقيدة الاسلامية من آيات الحق التي جعلها الله نظاما للحياة في الدنيا والآخرة ، منبها الى مكانتها من فطرة النفوس لاتخرج (عمار كن) في الطبائع السليمة ، وان العلم والحق يؤيدانها بدلالة ماساق من اياته حتى انتهى الى هـذه الاية اتبعها بما عليه الناس من تفرقة جريا مع حكم أثرتهم «كل حزب بما لديهم فرحون» ولا يرجعون الى ربهم الا اذا مسهم الضر مبينا بعد ذكر الضر ان الله هو المنعم الرزاق «اولم يروا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ان في ذلك لآيات

لقوم يؤمنون» (٣٧) واتبع هذا بما يجب من حق لذي القربى والمساكين وابن السبيل من زكاة تقتضيها هذه النعم، واتبعه بتحريم الربا مفسدة هذه النعم، وهكذا تتابع الايات وتتلاحم الى ان تختم السورة بعد ذكر عناد الكافرين بدعوة الرسول الى الصبر وان المشركين اهون عليه تعالى فسينصره عليهم بمثل ما استهل به السورة من ذكر النصر «فاصبر ان وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» وبذلك تمت الدورة كاملة في مطلع السورة والخاتمة وما بين ذلك ومن بعد الروم سورة لقمان.

لقمان: سورة مستهلة بذكر القرآن وآياته «هدى ورحمة للمحسنين» واتبعهم بوصفهم من العبادة والهداية ثم ذكر «من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم» وهو النضر ابن الحارث كان يقص على قريش احاديث العجم لتحل (على ما توهم) محل ما يرويه الرسول من اخبار الامم الماضية فيما يوحى اليه من القرآن واتبع ذلك بما سيعاقب به تعالى ويثيب بعد الاستماع الى ما خلق دلالة عليه قائلا «هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه؟ بل الظالمون في ضلال مبين» (١٠) بصدهم عن دعوة التوحيد ثم ذكر انموذجا للايمان الذي يعرف نعمه في خلقه فذكر خلاصة ما اوتيه لقمان من حكمة «أن اشكر لله» واتبعها بثمرة هذا الشكر قائلا «ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد» وانما هي تربية تجب على العبد وحق يعود القيام به على المرء بالخير في دنياه بحسن سلوكه وفي آخرته بثوابه مع المتقين

ثم ذكر من مقتضيات حكمة لقمان ماوعظ به ابنه بما يناسب العلم من نهي عن الشرك ،والتفت مستطرداً الى ان للوالدين حقاً يستوجبان معه الشكر كالخالق اذ كانا سبب خلقه«أن اشكرلي ولوالديك»ملحقا بذلك ما يبين حد إطاعة الوالدين بانه لايجوز ان يتعدى حق الله «وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما» وليس معنى هذا ان تعصي لهما كل امر ولا سيما مايخرج عن دائرة العقيدة من شؤون الدنيا فقال«وصاحبهما في الدنيامعروفا واتبع سبيل من اناب إلي» بحسن السيرة والمعاملة والعبادة، ورجع بعد هذا الاستطرادالى ماخاطب به لقمان ابنه واعظاً آمراً بفضائل الدين والبعد عن الكبر والغرور،وألحق ذلك من نعم الله عما يستوجب هذه السيرة الدينية وهذا الشكر مع الوحدانية في العقيدة مما ساق اليه الآيات السابقة فقال :«ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات والارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »(٢) ومع ذلك فان «من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٢٠) شأن من ذكره في مطلع السورة ممن يتبعون ما كان عليه آباءهم ولو كان الشيطان في ذلك يدعوهم الى عذاب السعير في أخراهم، وذكر بعد ذلك دعوته الى الاستمساك بالعروة الوثقى بأن يسلم المرء وجهه لله على النمط الذي بينه في الايات السابقة وخاطب الرسول قائلا :«ومن كفر فلا يحزنك

ثم، الينا مرجعهم» (٢٣)وتتابعت الايات متممة ماأتى على ذكره خاتما قوله بدعوته «ياايها الناس اتقوا ربكم ،واخشوا يوما لايجزي والد عن ولده ،ولا مولود هو جاز عن والده شيئا،ان وعدالله حق،فلاتغرنكم الحياة الدنياولايغرنكم بالله الغرور »(٣٣)ملمعافي ذلك الى ما كان بصدده من نصيحة اب لابنه كما كان من لقمان وما استطرد له القول اتماما لحق الموضوع من مجاهدة بعض المشركين ابناءهم ليظلوا على الشرك كما كان من والدة سعد بن ابي وقاص اذ آلت ان لاتطعم ولا تشرب او يعود لكفره وكان بها براً فابى ورات من اصراره مارجعت به عن عزيمتها،وذكر من بعد يوم القيمة الذي انذر به-(وهو من المغيبات)-جواب ماسأل الحارث بن عمرو عنه الرسول فقال :«ان الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث ،ويعلم مافي الارحام ،وما تدري نفس ماذاتكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير » (٣٤) فذكر امهات مفاتيح الغيب التي لايعلمها الا الله ومن ورائها متسع لكل ناظر عليم ،فسورة لقمان من مبدئها حتى منتهاها تدور حول ماتوجبه العقيدة القويةمن تربية ودعوة صالحة وشكر لله بمعرفة نعمه وصيانتها بوفاء حقها واثرها امنزلتها،وما كان وراء ذلك فمعاني يستدعيها القول ايضاحا لماهو بسبيله وبرهاناعليه ورداً على من كان يصدعن ذلك،ومن بعد لقمان سورة السجده

السجدة سورة مستهلة بأن الكتاب منزل من رب العالمين

لينذربه، وان الله الذي انزله هو الذي خلق السموات والارض ودبر الامر وهو الذي «احسن كل شيء خلقه» وكان من تمام ذلك كله دعوة الانسان لما فيه هداه وذكره «اذ بدأ خلق الانسان من طين» ثم جعل نسله من «سلالة من ماء مهين» من «مني يمنى» ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة وهي مدار رفعه مقام الانسان وكرامته ومع ذلك «قليلا ما يشكرون» هذه النعم حتى ينكرون البعث، واتى على ذكر ما يكون يومئذ وأن الله لو أراد إكراه الناس بمشيئة تلزمهم الهداية لكان ذلك في قدرته «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين» (٣١) فمن لم يرغب بهذا المصير فعليه ان يأخذ نفسه بهدايتها وان يؤمن «وانما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً [شاكرين لله نعمه] وسبحوا بحمد ربهم [عالما بما تدل عليه هذه الايات عليه من كماله تعالى] وهم لا يستكبرون» اخلاقهم هينة لينة سمحة فلا يفسدون في الارض ويوفون العبادة حقها «ومما رزقناهم ينفقون» راضين حتى اذا كانت القيامة وثواب الجنة نعموا فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون» (١٧) وأيد هذا المعنى بما يؤكده ثم رجع الى ما كان مستهلا القول به من ان القرآن الداعي الى ذلك كله بهدايته انما هو من وحي الله على نمط كتاب موسى السابق له «واتبع ذلك

بذكر من مضى وان الفصل بين الايمان والكفر واهلهما بيد الله فلا يستعجل به الكافرون وقل لهم بأنه يوم لاينفعهم فيه حتى الايمان ان آمنوا يومئذ لان محل الايمان في هذه الدنيا، وتوعدهم مخاطباً رسوله بما ختم به السورة قائلا: «فاعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون» فهذه سورة عبادة فيها بيت القصيد أن من يؤمن بآيات الله «اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون» ٥١- بعد سورة لقمان السابقة الداعية الى ذلك ومن بعد السجدة سورة الاحزاب.

الاحزاب وهي من السور التي تباعدت اغراضها ويصعب لأول وهلة معرفة الصلة بينها والمدار الذي تدور عليه في غرضها ولكن المتأمل لما في السورتين الاثنتين عوضعهما الاساسي بين ايمان وعبادة يظهر له التناسق في هذه السورة بانها صورة عما يعرض لحياة مؤمن متعبد وعلى رأسها حياة الرسول الاعظم - ص - فكان ذلك رباط معانيها وموضوع وحدتها، فهي مستهلة بما يجب على النبي بان «اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين» ممن يفاوضونه بالاستلانة لهم في معتقداتهم او يخذلونه عن قيامه بالواجب في سبيل الدعوة، وان يتبع مايوحي اليه فقط لما فيه هدايته وعصمته، وان يتوكل على الله، ثم انتقل الى ذكر عادات واوهام لمن نهى عن اطاعتهم فانكر من ذلك عليهم ما أنكر قائلا: «ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه» وكانوا يتوهمون ان للبيب

لاريب قلبين حتى قيل لابي معمر او جميل بن أسد الفهري (ذو القلبين) وماجعل ازواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم، وما جعل ادعياءكم ابناءكم، ذلكم قولكم بافواهكم [فلاحجة لكم فيه] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وكان من ذلك ايضاً النهي عن التبني وإلحاق المرء بغير نسبه ثم ذكر ماينا سب المقام من صلة الرحم وان النبي - (لولايته ورحمته وحبه الخير للمؤمنين) - اولى بهم من انفسهم وان ازواجه امهاتهم بالحرمة، امافي شؤون الدنيا والتوارث فأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وبذلك نسخ التوارث بين من آخى النبي بينهم من المؤمنين المهاجرين والانصار في صدر الاسلام حينما كانت الضرورة داعية وانتقل الى ان ذلك من تعاليم الدين و تبليغه الذى اخذ الله به الميثاق الغليظ على رسله وذكر بعضهم، ثم انتقل من شؤون الاسره المؤمنة الى ماعرض للمؤمنين في وقعة الاحزاب مصلالها وما كان من الكافرين والمنافقين الذين نهي الرسول في مطلع السورة عن اطاعتهم فهي تحذير عن اطاعتهم وذكر للمؤمنين الثابتين الذين قالوا حين رأوا جموع الاحزاب من قريش وغطفان مع يهود قريظة والنضر في زهاء اثني عشر ألفا يوم خندق الرسول حول المدينة «قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا و تسليما» (٤٢) حتى إذا ختم القول بما كان بعد ذلك من إخراج اليهود من صياصيهم لمالأتهم المشركين وخيانتهم رغم ما كان بينهم وبين الرسول من حلف فانه رجع الى ذكر

حياة الرسول الخاصة كما ذكر من قبل ، بين الاقرباء من رحم في صلاتهم اذ أمر الرسول بأن يخير أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الرغبة بالله ورسوله والدار الآخرة ، وأفاض فيما يناسب ذلك وختمه بما يعم المسلمين جميعا على درجات من تعبدهم نساء ورجالا ، ثم اتى على حادثة أعد لها القول في مستهل السورة من زواج زيد بن حارثة - (وكان مولى للرسول حتى كان العرب ينسبونه اليه) - فذكر كيف زوجه الرسول ورغب زيد عن زوجه حتى رغب بها رسول الله (ص) رغبة خشي قالة السوء بسببها في العرب فقيل له «وتخفي في نفسك [رغبة الزواج بها وفاء لزوجة زيد اذ كنت القاضي عليها بذلك الزواج رغم ميلها عنه] وتخشى الناس [ان يقولوا أخذ زوجة ابنه (وما هو بابنك) بعد ان أبان الله حكمه في الانساب بان يلحق المتبنى بأبيه لا بك فكان ذلك هو الحق من ربك] «والله احق ان تخشاه» قد فرض الله ذلك لك فلا حرج فيه عليك «سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً »(٣٨) ونص على أنه «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (٤٠) ثم التفت الى خطاب المؤمنين عامة داعياً الى ذكر الله وتسبيحه ملمعاً الى وحيه وهدايته لهم بذلك «ليخرجهم من الظلمات الى النور» وتوالت الآيات متناسقة في موضوع العبادة الى ان جدده بدعوة في شؤون الحياة الخاصة ذاكراً الزواج والطلاق

خطاباً عاماً للمؤمنين ثم نص على ذكر الرسول من بعده بما احل له وما حرم عليه ثم وجه الخطاب للمؤمنين ثالثة الى معنى يلائم الموضوع لاتصاله بشؤون الاسرة بالنهي عن دخول بيوت النبي بغير اذنه وان عليهم اذا دعوا الى طعامه ان ينتشروا بعد ان يطعموا لما يؤذي الرسول من استمرار بقائهم لضيق داره واشتغاله بوجائب اخرى عنهم، وان لا يخاطبوا ازواج الرسول الا من وراء حجاب، ونص على من اجيز لهن الاجتماع بهم كآبائهم، واتبع ذلك بمن يؤذي الرسول ثم المؤمنين ونص من بعد على الحجاب قائلاً: «ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين» (٩٥) وكان المنافقون يتعرضون للمسلمات بالايذاء ثم استطرد القول الى المنافقين منذراً لهم باغراء الرسول بهم وامره بقتالهم، وأتى على بعض ما كانوا يستهزئون به متعنتين كسؤالهم عن الساعة التي ينذرهم بها فذكرها قائلا «انما علمها عند ربي» والحقها بما فيه زجر لهم قائلا فيما قاله: «يوم تقلب وجوههم في النار، [يقولون غير هذا القول] يقولون ربنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا» وحذر ثانية من ايذاء الرسول بتوجيه الخطاب الى المؤمنين ثم دعاهم قائلا «اتقوا الله وقولوا قولا سديداً * يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم» (٧٠) ذاكراً تبعة الانسان، وما حمل من امانة عقله وقواه المدركة التي تبتغي عليها التبعة يوم القيمة، وانها قوى ستكون وبالا على المنافقين والمشركين

فيعذبهم الله بها «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما «وبهذا ختمت السورة فهي بموضوعها تتصل بحياة المؤمنين واعدائهم من المنافقين والمشركين وشؤونهم في اسرتهم وحياتهم في وطنهم وما امتن الله به عليهم من نصرة في مثل وقعة الاحزاب والهداية في دعوتهم الى الايمان الذي يريهم اقوم سبيل في الحياة تكون فيه نجاتهم يوم القيمة من التبعة، ومن بعد الاحزاب سورة سبأ.

سبأ سورة مستهلة بحمد الله «الذي له مافي السموات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم مايلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور» استهلالا فيه تناسب مع ختام السورة الآنفة وارتباط محكم بان اثنى على الله بعد أن اتى على طبقات الناس من حيث عبادتهم له، مبينا حدود سلطانه وان الحكمة والعلم يسودان كائناته ارضا وسماء، والرحمة والمغفرة تسودان عباده احياء واموانا، وذكر بعد ذلك من خلقة الذين كفروا منكرين للآخرة بما يناسب ما استهل به السورة وما ذكروه عن الرسول إذ أنبأهم قائلا: «إذا مزقتم كل ممزق [بالوفاة والفناء] إنكم لفي خلق جديد، [يوم القيامة] (٧) فقالوا عنه «إفترى على الله كذبا ام به جنة» فبين لهم ان الخسران نتيجة هذا الكفران والضلال البعيد ثم ذكر فضله على عباده

المؤمنين ليضرب بهم المثل فيكونون قدوة في ذكرهم بتبيان نعمه وما يؤتيه عباده الصالحين في الدنيا قبل الاخره ، فذكر داود وسليمان وما سخر لهما وذكر مما يقابل ذلك قوم سبأ وكيف مزقوا لكفرانهم بالله ونعمه بسيل العرم ، وختم قصتهم بأنهم اتبعوا في غوايتهم الشيطان وانتقل بعد ذلك الى خطاب المشركين الذين يسيرون على سمت هؤلاء الذين زالت نعمهم بديل السير على سيرة اولئك الصالحين الذين فاضت عليهم النعم قائلا لرسوله بان يخاطب المشركين : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير» (٢١) وجادلهم متنزها في جدله قائلا فيما قاله : « قل من يرزقكم من السموات والارض؟ قل: الله» واتبع هذا بما أريد توطأة له في عبادة هذا الاله الرزاق فتكون العبادة اما له بذاته مثل ما يدعوهم اليه الاسلام ، واما بضلال واشراك وعبادة أوثان ونحوها تقربا الى الله زلفى فقال لهم « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » (٢٣) فاما ان نكون مهتدين او ضالين او ان احدنا على هدى والآخر على ضلال فيجب ان تتحروا هذه الوجوه لمصلحتكم لاننا إذا كنا على ضلال فانكم « لا تسألون عما أجرمنا ، كما أننا « لا نسأل عما تعملون » (٢٤) ، وانما من وراء هذه الدار التي نختلف فيها دار « يجمع بيننا ربنا ، [فيها] ثم يفتح بيننا بالحق

وهو الفتاح العليم » (٢٥) فيجب ان تتحروا الحق وتجعلوه معياركم في صلتكم بربكم وعبادتكم له ، قبل أن يؤتى بكم بالبعث فيستبين لكم أنكم لم تكونوا على حق ، واتبع ذلك بآيات تجري على نسق هذه الدعوة باسلوبها وطريقة دعوتها وبرهانها ، حتى اذا قالوا : «نحن اكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين » (٣٤) قول اغترار لا برهان فيه ، (وحسب الغرور والاستكبار والجهل ان يكون دالا عليه) فانه امر الرسول بالرد عليهم بقول إلهي « قل ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (٣٦) وتلطف لهم بتبيان ما يدعو الرسول اليه وأن ليس ذلك من جنة وانما هو « نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (٤٥) وأنه لا يطلب أجرا على دعوته « إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد » (٤٦) يعلم ما تقابلون به هذه الدعوة بما فيها من حق ، ووعده بنصره « قل : ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » وذكر الرسول بشخصه « قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي إلي ربي انه سميع قريب » (٤٩) وذكر مصير الآخرة يوم يرون العذاب بديل النعم والثواب « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم [ممن كان على مثل اعتقادهم وعملهم] من

قبل، انهم كانوا في شك مريب » من هـذا المصير الذي انذروا بـه، فهي سورة تذكر الايمـان والكفران بمـا يستتبعان في الدنيـا والاخرة وهذا موضوعها وكل المعاني والآيات تجري الى هذه الغاية ومن بعد سبأ سورة فاطر « او الملائكة» .

فاطر «او الملائكة» مستهـلة بحمـد الله «فاطر السموات والارض » مبدعهما « وجاعل الملائكة رسلا» ملمعاً بذلك الى الوحي ومكانته من نظام الخلق رحمة منه تعالى بالناس وهداية لهم كما أنعم عليهم تعالى فيما رزقهم، ولئن كذبوا به فتلك سنة في الحياة «وإن يكذبوك [يا محمد] فقد كذب رسل من قبلك والى الله ترجع الامور» (٤) فسيرون نتيجة تكذيبهم ثم خاطب الناس قائلا « ان وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا [بما ترون فيها من حول وطول تنعمون بها فتكفرون وتنسون يوم القيمة] ولا يغرنكم بالله الغرور » (٥) فحذار حذار ولا سيما من رأسهم الشيطان داعية الكفران فانه عدو لكم « انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير » (٧) وحذر من مظاهر الغرور المهلك أن يزين للمرء عمله بنظره فيراه حسنا وهو في ضلال مبين ، واعقبه بخطاب الرسول بان مثل هؤلاء لا تأس عليهم « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون » (٨) فان الآخرة التي ينكرونها لها مثل من دونهم باحياء الارض بعد موتها بانزال المطر ،

« كذلك النشور » (٩) له نظامه المحكم ثم ذكر من بعد الغرور ومطمح العز مبيناً أنه بيد الله موضحاً بأنه لا يتنافى مع الدين بمقاصده « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » (١٠) وفي هذا عز في الآخرة ورفعة في الدنيا معاً ، وهما سبيل واضح للعز الذي يطمح اليه ، وعطف متمما الآية بما يكون من رجاه ذلك حتى اذا نال امرؤ مطمحه ترك ربه ونسي ما كان يدعو اليه ، فمثل هذا الالتواء في الخطة مكر ولكنه فائل « والذين يمكرون السيآت لهم عذاب شديد ، ومكر اولئك يبور » (١٠) فأين هم من الخالق الذي يرد اليه كل شيء وقد اودع في كل الكائنات دلائل قدرته وحكمته مما اقام له البرهان بذكر آيات من خلقه لا شريك له فيا أيها الناس « أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد » فينعم عليكم بالرزق والهداية « ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير » (١٧) وأتى بآيات تاليات على معان تناسب ما هو بصدده مما سبق ذكره مبيناً مثوبة من يأخذ بهداه مصنفاً من يخلفهم من بعدهم « فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » ذاكراً مشهداً من نعيم الآخرة وعذابها بما سيكون انذاراً وتبشيراً قائلاً من بعد ذلك « هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم الا

خساراً »(٣٥) واتى على الاشراك وباطل معتقده وان قريشاً اذ سمعت خبر تكذيب أهل الكتاب لرسلهم امنوهم «واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم ،فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفوراً *استكباراً في الارض ، ومكر السيء » واتم الآية عما يكون من جزاء ذلك مذكراً بمن أهلكهم الله « وكانوا أشد منهم قوة ،وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولافي الارض انه كان عليماقديراً » (٤٣)ولئن لم يتعجل تعالى بأخذ الناس بذنوبهم فذلك لانه «يؤخرهم الى أجل مسمى »سبقت به الكلمة حسب مقتضى حكمته في خلقه ، « فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً » لاتخفى عليه منهم خافيه فيجزيهم بما أنذروا به من قبل وكانوا عنه غافلين ؛ففي هذه السورة دعوة الى الايمان بالوحي والعمل الصالح بغير شرك وان من وراء ذلك نعم الدنيا بعزها وغناها والاخرة بهداها ومن بعد فاطر سورة ياسين

« ياسين » سورة مستهلة برسالة النبي مؤيدة بقسم فيه برهان الرسالة بقوله « والقرآن الحكيم *إنك لمن المرسلين »(٢-٣) مع توجيه القول الى الرسول نفسه تخفيفا لما يلاقيه من عناد قومه-(اذ كان لا يزال في مكة قبل ائتمارهم به وهجرته)-وان عليه الانذار وعلى الله المحاسبة، واتبع ذلك بمثل ضربه في قرية دعيت الى الايمان ذاكراً اصرار قومه وايمان

رجل غفر الله له مورداً قصته بما فيه دليل الايمان ونتائجه اذ قال لقومه : « اتبعوا من لا يسألكم اجراً وهم مهتدون * وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون » (٢٠ - ٢١) الى آخر قوله حتى اذا قيل له « ادخل الجنة :قال: ياليت قومي يعلمون* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين» واشفع ذلك بتذكيره عن اهلكهم الله من القرون وانهم الى الله راجعون مبينا ان لهم آية باحياء الارض الميتة ليستيقنوا من البعث والمحاسبة كما ان لهم دليلا آخر من الزرع ونظام الخلق باضطراده وتطوره واتقانه وما الى ذلك من تبصرة، ونوه بمن انجاهم الله بالفلك المشحون تبيانا لسلطانه ونعمه وما عليه المصرون «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين» (٥٤) وما هم عليه من بخل وجهل «واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله» قال الذين كفروا للذين آمنوا: انطعم من لو يشاء الله اطعمه» (٦٤) قولا فيه مغالطة إذ ان مشيئة الله في شرع شرعه فاوجب فيه الزكاة وامر فيه باطعام الفقراء والانفاق على الخيرات، وآخر ما هم فيه انهم للبعث ينكرون «ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين» فذكره بما اتبعه من آيات القيامة والبعث والمحاسبة وما ثم من معاتبة اذ يقال للمجرمين «الم اعهد اليكم يابني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين* وان اعبدوني هذا صراط مستقيم» وان هذا يوم عتابهم «ولو نشاء لطمسنا على اعينهم» (٢٦)

ولم سخناهم في الدنيا معاقبين لهم ولكنا امهلناهم وانذرناهم وهذا الكتاب المنزل على محمد «إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين» (٧٦) فليس شعراً وما ينبغي ان يكون القرآن شعراً ولا محمد شاعراً وقد عرفتموه حتى الاربعين من سنه انه لم يك على ما تقولون، ورجع بعد هذه الشدة بذكر المواقف المنذرة الى ما يناسب الدنيا من تنبيه الى آيات الله وذكرها يأملون من عبادة الوثن «لعلهم ينصرون» (١٧) بهم وهم عنهم منصورين «فلا يحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٧٧) وخاطب الانسان بعد ذلك قائلا بانا «خلقناهم من نطفة فاذا هو خصيم مبين» ينكر البعث وقدرتنا عليه ناسياً ما يدله عليه خلقنا له «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم» وضرب المثل لذلك بالآية التي اتبعها قائلاً عن نفسه : «الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون» ففي تطور انبات الشجر وحياته وموته واحتراقه بعد اخضراره برهان على قدرة البعث وانه من نظام فطرة هذا الوجود، ثم التفت مقرراً باستفهام يستنكر نكران قدرته على ذلك قائلا «أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم» مستنداً في ذلك الى واسع سلطانه وأن فيما خلق برهانا على قدرته، وهو عليم به يجري على سنن التطور الذي ابدعه جل سبحانه اذ جعل من الاخضر النبات الحي ناراً تلتهب ، فكان بين الجماد والموات والحيوية والخضرة

مابين الحياة والموت من دورات يصير بعضها الى بعض، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الارض بعدموتها، وكذلك شأن الانسان اذ خلقه في اطوار من نطفة وما قبلها الى ان يعيش ويموت، فكشف بذلك عن حقيقة البعث بأنه طور آخر يجرى على هذا السنن يرده جل سبحانه الحياة الى الموات، وقد اعطى هذه النماذج برهانا لمن ابصر، فالعلم الالهي والخلق والقدرة ونظام التطور في الاحياء هي برهان البعث الذي ينكرونه انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له: كن فيكون، (٩٧) وكأنها كلمة «كن» لا تبدأ حتى يندغم فيها المراد كما تختفي الفاء مع النون في تبويدها فاذا هو كائن على وفق مشيئة الله فجاءة او على سنته ابداعا وتطورا كما خلق السموات والارض في أيام، فهي إرادته ومشيئته لا يشذ عنهما ما يأمر به على الشكل الذي يريده، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون، فهي سوره تدل على القدرة الالهية ومعها وجوب الايمان والعبادة وما ينطوي عليه من إنذار ومحاسبة في الاخرة كما في الاية الاخيرة كأنها لباب السورة سيقت اليه سياقا متناسباً بذكر الرسالة وما تنطوي عليه من انذار وما كان من ايمان واصرار ومحاسبه بعقوبة ومثوبة، وفي خلال ذلك من البراهين والتذكير بآيات الله الملزمة بما يدعو اليه مايتناسب مع طريقة القرآن وغايته من التنبيه والهداية. ومن بعد

ياسين سورة الصافات .

الصافات سورة مستهلة بقسم يذكر الملائكه بطبقاتها من صافات للعبادة ومنفذين للاوامر الالهية قسراً وزجراً « فالتاليات ذكراً * ان الهكم لواحد » فهي مستهلة بتدعيم معنى من معاني السورة الآنفة التي نوهت بايمان الرجل الذي «جاء من اقصى المدينة يسعى » قائلا: «أأتخذ من دونه [اي من دون الله] آلهة »متعددة وأوثانا «لاتغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون» (٣٢ باعتبار أن التوحيد هو الركن الاول للعقيدة والايمان الذي يدعو اليه، ثم انطوت الآيات التاليات على نفي الوحي والقدرة عليه الا لمن انزله الله عليه اذ أنا «زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد » فلا يستطيع ان يسترق السمع او يتبعه « شهاب ثاقب » يهلكه، وتنقل بعد هذا التمهيد الى عرض ما كان من المشركين من معتقد وانكار للحشر وسخرية بما يذكرون به وتأكيد لما سيؤخذ به المشركون يوم القيامة وما يتساءلون عن اغواء بعضهم بعضاً فيكون ذلك مدعاة هلاكهم جميعاً «فانهم يومئذ في العذاب مشتركون * انا كذلك نفعل بالمجرمين »ذلك لانهم «كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون * ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» مع انه «جاء بالحق وصدق المرسلين، فكانت دعوته متممة لرسالات من سبقه لاتنافيها بعقيدة

ولا تغاير مقصداً في عبادة، ثم انتقل الى ذكر من كان على عكس ذلك من عباد الله المخلصين ونعيمهم وما يتساءلون عنه كما تساءل اهل الجحيم، فاذا هو يسأل قرينا له عما لقيه بعدما كان في دنياه يدعوه الى نكران المحشر اذ يقول له: «أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمدينون» (٣٥) «فاطلع فرآه في سواء الجحيم» وقارن بين الحياتين في نعيم وجحيم ذاكراً ان لا حجة للمشركين في عقائدهم الا انهم «الفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون» (٧٠) وان ذلك شان من قبلهم وسيهلكون مثلهم «الا عباد الله المخلصين» ونوه بعد ذلك بقصة نوح في قومه وان «من شيعته» لابراهيم، واتى على ذكر ما استدل به على ربه حتى نجا من عقيدة آبائه الباطلة في عبادة النجوم ليكون في ذلك قدوة لتحرير عقولهم مما عليه آباؤهم، وذكر ان الله وهب له ابنا صالحاً رآى في المنام أنه يذبحه -(ورؤيا النبي كوحي يقظته)- فاستسلم له ابنه فكان ذلك ابتلاء من الله له ليرى مبلغ قيامه بما يأمره به حتى اذا بلغ الامر مبلغه كان الفداء له بذبح عظيم ذهب في الاضحية تشريعاً للآخرين، ثم ذكر ابناء اقوام مختلفين نبيانا لما دعوا اليه وما في معتقداتهم من اباطيل وما كانو مستنكراً يتقولون به من اتخاذ الله الملائكة بناتاً فاوضح ذلك مبيناً ان لا حجة لهم بعقيدتهم هذه يعتمد عليها، اذ لا برهان لهم ولا كتاب بين ايديهم ولا سلطان يؤيد أباطيلهم، منذرا لهم قائلا

«فانكم وما تعبدون * ما انتم عليه بفاتنين * الا من هو صال الجحيم» (١٦١-١٦٣) واتبع ذلك باعتراف الملائكة بعبوديتها لله وقيامها بامره وفي هذا المساق ما يوضح وجه القسم في مستهل السورة، ويبين تلاحم اجزائها الى غاية واحدة يتالف منها وحدة الموضوع، ثم كرر ما سبق التقريع عليه في سورة فاطر وهو ما كان يقوله المشركون من العرب «لو ان عندنا ذكراً من الاولين * لكنا عباد الله المخلصين» حتى اذا جاءهم القرآن كفروا به «فسوف يعلمون» والحقه بما سبقت به كلمة الله عن المؤمنين «انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم الغالبون» (١٧٣) وذكر ما على الرسول من واجب الى اجل يرى من بعده ما يلحق بهم «افبعذابنا يستعجلون» ومن ثم بعد تمام هذا المعنى ختم السورة بتنزيه الله وحمده والسلام على رسله فهي بموضوعها دعوة للتوحيد ودحض لبعض معتقدات المشركين بالله مما اتبعوا فيه آباءهم وطريقة النجاء من ذلك في نظر صحيح كما فعل ابراهيم واشفع ذلك بالتنويه بالمرسلين تاكيداً لانذاره وتبياناً لطريقة الهداية ومصير أهله ليأخذوا بالعقيدة الصحيحة برب العزة رب العالمين ومن بعدها سورة صاد

﴿ صاد ﴾ سورة مستهلة بالتنويه بالقرآن قسما به بانه تذكرة وان الكافرين «في عزة وشقاق» (٢) في أباطيل معتقداتهم وهم يعجبون «ان جاءهم منذر منهم» قائلين: جعل الالهة الها واحداً مستبعدين ان ينزل عليه الذكر من بينهم وحياً من الله، والحقيقة ان لا برهان لهم على ذلك وما أصروا الا لان ما انذروا به لم ينزل بهم عقابه «بل لما يذوقوا

عذاب «ثم ذكر من كذب الرسل فحق عقاب الله عليهم وخاطب الرسول قائلا : «اصبر على مايقولون ، واذكر عبدنا داود » ليكون له اسوة وذكر من نعمه عليه وما انيط به من الحكم بين الناس بالحق فتعجل فكانت عجلته خطيئة ليتبصر الرسول الاعظم (ص) ويأخذ الامور بالروية مبيناً له حكمته في خلقه وهدايته بقوله: « وماخلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا بربهم ، فويل للذين كفروا من النار » (٧٢) وان العدل في ذلك « ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار ؟* كتاب انزلناه اليك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب » وما اتم هذا المعنى الذي مهدت له المناسبة حتى اتم ما كان بصدده من ذكر داود وابنه سليمان ضاربا المثل بانابتهما الى ربهما فيما اخطأ به وأخذ عليهما كأنبياء ثم ذكر ايوب الذي قال فيه « انا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب » (٤٤) وذكر بعد ذلك من الرسل من نوه بهم قائلا « هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب » من جنة اتبعها بما يناسبها من ذكر الطاغين وجهنم يصلونها وما يختصم به اهلها حتى اذا انتهى من ذلك خاطب الرسول بما يكتفي به من قول في دعوته حيال صدود المشركين مبينا انه « نذير ومامن اله الا الله الواحد القهار * رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار » (٥٦-٦٦) مبيناً لقومه انه

اتاهم من الملا الا على باخبار اوحي بها اليه فيها برهان على صدقه لانها لاتتأتى لأحد بغير الوحي وهي : الخلق وسجود الملائكة لادم واستكبار ابليس تعصبا لعنصريته بأنه مخلوق من نار وآدم (ص)من طين وما اخذ به العهد على نفسه من إغواء أبناء آدم بعد أن وعد بالنظرة اثر طلبه ذلك من ربه وان يكون ممهلا «الى يوم يبعثون»(٦٧) وما توعده الله به قائلا: «لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين» مبينا ان الرسول لايطلب على هدايته لهم وتحذيره وانذاره أجرا وانه لم يتكلف مالم يؤمر به فيكون بذلك فضوليا وانما امر بتذكير العالمين «ولتعلمن نبأه بعد حين» وبذلك ختمت السورة فهي تبيان لمعني الرسالة وانذارها والصبر عليها والانابة الى الله فيما يلم بالمرء من خطيئة وفي هذه السورة نماذج مما أخطأ به المقربون من طبقة الانبياء عليهم السلام وهم ارفع اهل الايمان درجة هذا بعد ما اورد في «يسين» ومابعدها قصص من امن ودعا الى الايمان في وسط الشرك والكفران كالذي جاء من اقصى المدينة من العامة وكابراهيم من الانبياء وابنه اسماعيل لتكون نماذج قصصهم جميعا يتمم بعضها بعضا هدى للعالمين ليكونوا مؤمنين على النهج القويم ومن بعد صاد سورة الزمر .

الزمر وهي من السور المكية التي نزلت داعية الى الدين مبينة مافيه من حق ،دالة على آيات الله ، موضحة ماوراء هذه

الدعوة من انتظام شؤون الحياة وسماده الآخرة مناقشة من بعد ذلك المشركين بالرد عليهم ذاكرة سوء مصيرهم في آخرتهم ، الى جانب مصير المؤمنين في جنات الخلود ،فهي سورة كاملة لمرحله من مراحل الدعوة الاسلامية فيها من اساليب القرآن وطرائقه فيما يدعو اليه حلقة تامة باجزائها المفرغة ،وهي مع ذلك بمكانتها من السورة الآنفة التي اختتمت منذرة بان القرآن ذكر للعالمين «ولتعلمن نبأه بعد حين»بايضاح هذا العلم الذي سيعلمون نبأه فقد استهلت السورة بأنه « كتاب من عزيز حكيم» عزيز لاتدفع له مشيئة ولا يغلب بمعصية،حكيم فيما وضع من نظام للكائنات وما خلق عليه الانسان خاصة،هذا الانسان الذي يدعوه ربه لهداه وخيره بالحق الى صراط مستقيم فيجفوه ، فكانت كلمة في الكتاب المنزل وفي الناس الذين دعوا اليه بتبيان عزة من انزله وحكمته،ومن بعدها اوضح فيم تنزل وعلى من تنزل وما هو الواجب عليه،فذكر بانه انزل على محمد،وانه نزل بالحق ليعبد الله «مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص » ثم عرض بما وراءه من دين يعبد فيه غير الله بعبادة اوثان يقول المشركون « مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » من غير ان يكون لهم دليل في هذا الزعم الباطل « ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون »ورد على اعتقاد آخر باطل باتخاذ المشركين له ولدا « لو اراد ذلك «لاصطفى مما يخلق مايشاء» فكان دليل ارادته حسن اصطفائه

اما وانه لم يرد ذلك فما الدليل على مايعزى اليه باطلا ، سبحانه هو الواحد القهار ، لايليق به مايعزى اليه وهو واحد له الامر سيعاقب بالقهر من افترى عليه ، لانه لايليق به الا الحق ،وقد خلق السموات والارض بالحق، كما انزل الكتاب بالحق،واوضح مظاهر هذا الحق بما اتبعه من نظام هذا الكون في افلاكها وزمانها ودقة نظامها،يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، [فيتعاقبان بانتظام] وسخر الشمس والقمر[بمايستفيد الناس منهما من خير] كل يجري الى اجل مسمى[فتكون الفصول الشمسية والاشهر القمرية دقيقة والى اجل يريد الله به اعمار ارضه] الا هو العزيز[بسلطانه ومحكم ارادته وجليل قدرته] الغفار، يشمل عباده برحمة فيغفر لهم ولا يتعجل عقابهم حتى يصروا مستكبرين بعد انذارهم وهدايتهم . ثم ذكر من مظهر الحق في خلقه بعد نظام السماء والارض هذا الانسان فقال :«خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها» واتبع ذلك مبينا ان هذا النظام في التوالد قد عم الحيوان على الارض بذكر مايستفيد الانسان منه في معرض تبيان نعم الله وحكمة نظامه فقال « وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج»(وهي الابل والبقر والضأن والماعز) ثم رجع مفصلا نظام توالد الانسان في تكوينه قائلا « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » حتى اذا اتم بهذا الايضاح وجه الحق في خلقه-(مبينا فيه وجه

الحق بتنزيله ودعوته، وان الذي احكم هذا لخير الانسان قد احكم الدعوة لهدايته)۔ رجع حينئذ الى ركن الهداية الاول بمعرفة الله قائلا «ذلكم الله ربكم، له الملك لا إله الا هو، فأنى تصرفون» عن الايمان به والاستجابة لدعوته الى الخالق ولد به او عبادة وثن من دونه مما لا يليق به سبحانه، واتبع هذا مبينا القصد من الدين بدعوته وجزائه قائلا «ان تكفروا فان الله غني عنكم» فلا يدعوكم لما يدعوكم اليه الا لخير كم انفسكم لا لأنه بحاجة الى ما يدعوكم اليه «ولا يرضى لعباده الكفر، وان تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر اخرى» حتى اذا انتهت آجالكم رجعتم اليه «فينبؤكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور» (٧) فيحاسبكم بالحق ويقيم قسطاس العدل، ثم نبه الانسان الى نقطة ترجع اليها اسباب غفلته عن هدايته بذكر النعماء والضراء وأثرهما في نفسه فقال «وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه [راجعاً إليه] ثم اذا خوله نعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل [حتى انه زاد في الغفلة عن الله درجة] «وجعل لله انداداً ليضل عن سبيله[1]» فمن كان هذا شأنه ولم تنفعه الذكرى فقل له «تمتع بكفرك قليلا» فأيام الدنيا قلائل «انك من اصحاب النار» في آخرتك، وأتم هذا المقصد الذي يرمي إليه بمن كان على عكس ذلك ذاكرا ربه قانتاً عابداً «يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه» (٩) وفسح المجال هنا لنظر الناظر بما يكون

عليه في الآخرة مما يرغب به كل عاقل لنفسه فحطا درجة في هذا القصد ثانيه وقال «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ انما يتذكر اولو الالباب» بعد هذا التبيان لهم والتنبيه الذي يوضح لهم الدين بمكانته من الحق ومكانة ذلك من هذه الحياة الدنيا بنظام كائناتها ولا سيما الانسان الذي يستمتع بارضها وما سخر له فيها ومكانته من الحياة الآخر باقامة الحق فيها ومحاسبة الخلق على مافرط منهم رغم تذكيرهم وتحذيرهم، حتى اذا تم هذا المعنى خاطب المؤمنين بما يرغبهم بالمثوبة في الآخرة واعدالهم بالفرج من ضيق كانوا عليه بين قومهم الكافرين وهم اقلاء قائلا «للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة» وان عليهم الصبر وهو ثمرة لما هم فيه «انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب» واتبع ذلك بما يخاطب به الرسول قومه باستمساكه هو قبلهم بما دعاهم اليه ولو صدوه «قل إني أمرت ان اعبد الله مخلصا له الدين» (١١) فله «اعبد مخلصا له ديني * فاعبدوا ماشئتم من دونه» وإن كان في البعد عما دعوتكم اليه خزي وعقوبة في جهنم واتبعها بمثوبة المهتدين، ضاربا المثل بعد ذلك للهداية - (بما تنزل عليه من وحي) - بهذا المطر الذي يتنزل محييا الارض قائلا «ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب» تنشرح معه الصدور للاسلام فيكون المرء «على نور من ربه» وليس بعد ذلك الا غفلة وقسوة «فويل للقاسية

قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين » (٢٢) ثم اتبع هذا ببيان ذكر الله الذي انزله فوصف القرآن باثرة في نفس المؤمنين قائلا «الله نزل احسن الحديث [القرآن] كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء» (٢٣) مبينا ما في سوره وآياته من تشابه لانها ترمي جميعا الى مقصد واحد من الهداية والتذكير بالله والخشية منه يتجاوب اثرها في الجسم والنفس، يظهر على المرء في جلده ويكون ممتدا اثره الى اعماق قلبه، واتم هذه الاية بما وراء الهداية من ضلال قائلا « ومن يضلل الله فما له من هاد » ومع الضلال سوء العذاب وعلى ذلك حذر بالآية التالية منه مبينا ان الذين كفروا من قبل قد اصيبوا به « فاذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون» (٢٦) واتبع ذلك بان القرآن الذي ينذرهم من ذلك قد ضرب لهم الامثال ليعتبروا فيتذكروا فقد جاءهم «قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون» (٢٨) واتبعه بمثل يوضح ما في الهداية من خير يعود على المرء يستعين به كما يستعين رجل برجل سلم له عبد خالص الملك له هذا بينما المتشاكسون بعبد مشترك بينهم يفوتهم خيره اذ يتوزعون قلبه بمطاليبهم المتباينة وكذلك شان الموحد في عبادته والمشرك بربه لان الملك لله وحده وله القدرة والمنة وبين بعد ذلك ان الرسول واخصامه سيلقون ربهم فيجزي المسيء ويثيب المحسن وان في الدنيا له النصرة، والحق ذلك

ايضا قائلا : «أليس الله بكاف عبده» منكرا النفي بهـذا الاستفهام زيادة في مبالغة اثبات نصرة الله لرسوله فبماذا يخوفونك يا محمد؟ «بالذين من دونه» ممن لا حول لهم ولا طول ، ولكنها دعوة وهداية «ومن يضلل الله فماله من هاد» (٣٦) ثم انتقل مرحلة ثانية لمجابهة المشركين بمناقشتهم واقامة الحجة عليهم مبينا لهم الذي دعوا اليه بكتاب الله وانتقل من بعد ذلك الى ما يجب ان يكون عليه الرسول من ثبات يفوض فيه الامر لله «قل اللهم فاطر السموات والارض انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون» (٤٧) ثم خاطب المؤمنين الذين اسرفوا على انفسهم واعداً بالمغفرة داعيا الى المثوبة قبل ندامة القيامة التي افاض بذكرها قائلا : «الله خالق كل شيء وهو على كل وكيل» (٦٢) فلا عبادة لغيره مبينا ان الرسول امر بعبادته وحده «ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» (٦٦) مبينا أن المشرك في شركه دال على انه لم يفهم معنى الخالق بألوهيته «وما قدروا الله حق قدره ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون» وذكر بعد ذلك مشهداً من مشاهد يوم القيامة وما يكون من محاسبة فيدخل الكافرون الجحيم ويدخل المتقون الجنة فيحمدون الله قائلين

« الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض [فكانت العاقبة من من بعدها في هذه الآخرة لنا بجنة الله] نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين [يومئذ] من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق [الذي دعواليه وقامت به السموات والارض مما ذكره في مستهل السورة] وقيل الحمد لله رب العالمين » وبهذا ختمت السورة ، فهي سورة تدعو الى الحق في الهداية وتبين لهمظاهره في الحياة الدنيا والآخرة وماثم من نتيجة جاءلة التوحيد لله رأس الدعوة والحق ومن بعدها سورة المؤمن .

المؤمن : وهي من الحواميم اي مستهلة بـ«حم» التي ترددت في عدة سور متتابعة اتبعت بتنزيل «الكتاب من الله العزيز العليم» ذاكرة اوصافه من حيث اعتبار العبادة بما يناسب ختام السورة الآنفة وموضوعها « غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لاإله الا هو اليه المصير» هذا الاله الذي يجب الايمان به هو الذي انزل آياته ولكن الذين كفروا يجادلون بها مغترين بقوتهم « فلا يغررك تقلبهم في البلاد» (٤) «فسنأخذهم بكفرهم كما اخذنا قوم نوح والاحزاب من بعدهم «وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق» فكانت النتيجة ان اخذتهم معاقبا «فكيف كان

عقاب» (٥) وهم في الاخرة من اصحاب النار، هذا بينما تستغفر الملائكة للمؤمنين داعين لهم ولازواجهم وذرياتهم ان يجنبوا منزلات سيآتهم التي لا يسلمون منها في حياتهم وبين ان الكافرين اذ يرون ذلك تنكسر نفوسهم ويشعرون بمقت شديد فينادون «لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم» لكفركم واشراككم بالله بعد ان اراكم آياته ومنها ما فيه رزقكم الذي تسدون به حاجاتكم اذ كانت وفق العناية صيانة للحياة «وما يتذكر الا من ينيب» (٣١) كلما اقدم على عمل رجع الى نفسه يحاسبها ويرى واجبه الالهي رجوعا الى ضميره بعد عمله، وهذه خطة العبادة والدعاء «فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» فانه تعالى «رفيع الدرجات * ذو العرش يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده» منذراً يوم «تجزى كل نفس ما كسبت» (٧١) فلا حكم الا لله «والله يقضي بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء» (٢٠) وايد هذا مذكرا بسيرة من مضى وما كان من فرعون وحزبه «فلما جاءهم [موسى] بالحق من عندنا قالوا: اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم» [مغترين بقوتهم] «وما كيد الكافرين إلا في ضلال» (٢٥) فاهلكهم الله وافاض في ذكر اسباب ذلك من تعنتهم وإصرارهم رغم أن رجلاً مؤمناً من قوم فرعون كان يكتم إيمانه جاءهم داعياً للايمان فابوا وذكر ان كان من قبله يوسف داعيا لهم ايضاً «فما زلتم في شك مما

جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، زيادة في الارتياب من غير دليل عليه مما يعتبر من مزلات الضلال ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »(٣٤) وهو ارتياب «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم» فلا حجة لهم ولا برهان ، وذكر مايتحاجون به بعد ذلك في النار بان يقول المستضعفون للمستكبرين بانا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار ، وهكذا تخللت قصة المؤمن مافيه عبرة ليكون مثالا لمن كانوا يقفون من الرسول (ص) واصحابه موقف المعاداة لدعوة الاسلام ، ولذلك عقب القول بخطاب الرسول «فاصبر ان وعد الله حق ، واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ، (٥٥) فان جدل من يجادلون من هذاك النمط المنبعث عن الكبرياء «فاستعذ بالله انه هو السميع البصير »(٥٦) واعقبها بما فيه تنبيه للانسان ليؤمن بالله وسلطانه ذاكرا من آياته مايوجب العبادة له بمثل قوله «الله الذي جعل لكم الارض قراراً والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » (٤٦) حتى اذا أتم هذا المعنى بما يناسبه كر على المجادلين الذين يتناولهم في هذه السورة فأتى بمشهد من آخرتهم وعقابهم قائلا «ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون» (٧٥) وعاد بعد ذكر الامم الخالية يكرر امر الرسول

بالصبر كما امره من قبل قائلا «فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم [في الدنيا] او نتوفينك [قبل ذلك] فالينا يرجعون» فيرون ما حق عليهم من كلمة، ومبينا ان ذلك سنة الله في الامم السابقة و «منهم من قصصنا عليك» اخبار رسلهم «ومنهم من لم نقصص عليك» وكلهم جرى عليهم هذا القانون الالهي الذي يقضي باهلاك المجرمين وعقابهم في الآخرة، وبين ان الايمان حين تحق العقوبة لا ينفع له «سنة الله التي خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون» وبهذا ختمت السورة فهي بموضوعها صورة تعرض لمن يصد عن دعوة الله وتبين مصيره مع اسباب هلاكهم مثل شدة ارتيابهم رغم أن البرهان يؤيد من آمن منهم ممن يدعوهم من قومهم الى ما دعاهم اليه رسولهم مبينة في ذلك بطلان ارتيابهم وان مبعثه الاستكبار والغرور بغير برهان ومن بعد سورة المؤمن سورة السجدة.

السجدة سورة مستهلة بالتنويه بالقرآن بأنه «تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون» فكان ذلك اتماما لما ختمت به السورة الآنفة وعوداً لايضاح ذلك بما قالوه فكانت فيه الدلالة على انهم معرضون عما يجب ان يستمعوا اليه من آيات القرآن وان عملهم الى بوار وهذا الرسول بشر مثلهم انما يدعوهم لوحدانية الله والاستقامة في الحياة والاستغفار مما يقع المرء فيه رغم ذلك، واتبعه بايضاح الكفر بالخالق

-(ركن الوحدانية)-ذاكراً خلقه تعالى للكائنات وان الاعراض عن الدعوة اليه يستوجب الهلاك كما اهلك امماً ذكرها وبين ان الذنوب في الآخرة تشهد عليها جوارح المذنبين أنفسهم ، ولكنهم مع هذا الانذار متصامين اغتراراً بما يزين به بعضهم لبعض باطل اعمالهم وما يضلل به قرين قرينه حتى قالوا «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» (٢٦) مما يوجب عليهم أشد العذاب ، وذكر بعد ذلك ما يلقاه المؤمنون وذكر من الفضائل ما يناسب تلك المساوىء فمن ذلك قوله: «ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال : انني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع [يا محمد واصحابك على خطئك] بالتي هي احسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم» (٣٥) ثم اتبع ذلك بأن من آياته تعالى الليل والنهار والشمس والقمر قائلا : «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون» وذكر ما يناسب ذلك من الآيات والدعوة والتنويه بالقرآن وانه «للذين آمنوا هدى وشفاء» (٤٤) وان «من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد» (٤٦) فاذا دعاهم يوم القيامة محاسباً سائلا عما كانوا يعبدون من دونه تبين لهم ضلالهم ، واتبع ذلك بما انطوت عليه دعوة القرآن من خير للانسان رحمة من الله بما يلائم طبيعته «لا يسام الانسان من دعاء الخير» وعلى العكس من ذلك «وان مسه الشر

قنوط » (٤٩) وان الرحمة من بعد الضراء تصيبه تأخذه بالغفلة اذ يحسب ماهو فيه حقا له لامرية فيه حتى يقول : « وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى » دون ان يعد للامر حسابه «واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (٥٠) وختم السورة بان القرآن من عند الله وان دعوته لعبادة الله وحده هي الحق « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ولكنهم في مرية من لقاء ربهم «الا انه بكل شيء محيط » فهي سورة تبين دعوة القرآن دائرة حول الاعراض عنه بلا معذرة والتدبر لما يدعو اليه من وحدانية الله والاستقامة في الحياة والاستغفار بعد الزلة ومن بعد السجدة سورة الشورى

الشورى سورة مستهلة بالتنويه بالوحي الى الرسول «قرآنا عربياً » لينذر به وان «لو شاء الله [مشيئته يكره الناس عليها] لجعلهم امة واحدة [مسلمين جميعا] ولكن يدخل من يشاء في رحمته باقباله على الايمان، مبينا انه «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي اوحينا اليك «وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (١٣) وان الغاية الاستفادة من هذه الدعوة اليه تعالى لما فيها من خير للعباد وليس لهم ان يتعنتوا ويتزمتوا فيجعلوا الدين مدعاة شقاق واختلاف كما كان ممن سبق «وماتفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم، بغيا بينهم» (١٤) وفي هذا البغي

باطل واختلاف قلوب « فلذلك فادع واستقم كما امرت ، ولا تتبع اهواءهم ،وقل :آمنت بما أنزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم،لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم [فلا خصام ولا حجاج] الله يجمع بيننا واليه المصير » (١٥)وبين في ذلك مكانة دعوة الاسلام بما سبقه من الشرائع وخطته حيال الكتابيين الذين تفرقت كلمتهم ومعتقداتهم ،واتبع ذلك بما يوضح دعوة الاسلام قائلا «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » (١٧) وحذر من الاخرة مبينا ان «من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب »(٢٠)ان لم يعمل للاخرة متبعا ما اوحى به الله ،وان من اتبع غير ذلك في ضلال والا افيحسب ان لله شركاء «شرعوا لهم من الدين مالم ياذن به الله»؟وذكر من ثواب الدنيا والآخرة وعقابها ماذكر مبينا وجه الحكمة فيما يقبض ويبسط قائلا:« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر مايشاء ،انه بعباده [وما فطروا عليه وما يعملون] خبير بصير » (٢٧) وتوالت الآيات مرغبة مبينة رحمة الله وقدرته بما يؤيد العقيدة وماتدعو اليه قائلا « فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» (٣٠) وذكر من صفاتهم

وسيرتهم ماذكر حتى اذا اتم سيرتهم ذكر من كانوا على عكس ذلك في ضلال حتى اذا اتم ماأراده من عرض الحالين ليختار المرء لنفسه منها مايرضيه رغبهم قائلا : « استجيبوا لربكم من قبل ان يأتي يوم لامرد له من الله،مالكم من ملجا يومئذ وما لكم من نكير» مبينا ان هذه دعوة الله اوحى بها، وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء »(٥١) منوها عما اوحي به الى الرسول ممتنا عليه بانه انزل عليه نوراً يهدي به الى صراط مستقيم « صراط الله الذي له مافي السموات وما في الارض،الا الى الله تصير الامور » وبهذا ختمت السورة مبينة وحي الله الى الرسول ومن قبله ان «اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»باستقامة السيرة وحسن الايمان بما انزل الله من حق في شؤون الدنيا والآخرة ومن بعد الشورى سورة الزخرف

الزخرف سورة مستهلة بذكر القرآن وان الله جعله « عربيا لعلكم تعقلون * وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» تصفه بما يلائم ماورد في السورتين الآنفتين وانه تذكرة واجبة لابد منها للعرب خاصة والناس عامة ولو كانوا مسرفين في عنادهم وارتيابهم عنادا اهلك من قبلهم وقد علموا ان الله هو الذي خلق السموات والارض وبث فيهما من نعمه ماسخره للانسان في معاشه

ومع ذلك فقد «جعلوا له من عباده جزءا» كفرا منهم بوحدانيته وعبدوا فيما عبدوا معه الملائكة «وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم» دون ان يكون لهم دليل على اسناد هذه المشيئة الى الله «مالهم بذلك من علم» يقيني ولا كتاب موحى به يتخذون منها برهانا إن هم الا يخرصون» تقليداً لآبائهم جريا مع سنة المترفين في كل امة حتى قال لهم الرسول: «أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم» فكان جوابهم - «قالوا انا بما ارسلتم به كافرون» (٢٤) وضرب مثلا بابراهيم وما كان من كفران ابيه آزر وقومه وانهم ظلوا متمتعين بحياتهم حتى «جاءهم الحق ورسول مبين» (٢٩) فقالوا هذا سحر «وإنا به كافرون» فحقت بذلك عليهم كلمة الله، وكذلك شأن الذين يجادلون الرسول بغير حق جدلا قالوا فيه «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين [مكة والطائف] عظيم» (١٣) يحسبون ان في ذلك ماهو اليق بالدعوة «اهم يقسمون رحمة ربك»؟ (٢٣) فيكون رأيهم الأحق بالرعاية وهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً مغترين بما أترفوا فيه «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٢٣) ليكون في ذلك مدار النظام في تعاونهم الاجتماعي في هذه الحياة الدنيا وليس ما يتمتعون به من معاش الدنيا باقياً ابداً وهو هين على الله «ولولا أن يكون الناس امة واحدة [يندفعون في طريق

الكفر] لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم ابواباو سرراً عليها يتكئون * وزخرفاو إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا» سيسلبونه ثم يكونون عليهم حسرة «والآخرة عند ربك للمتقين » (٥٣) خالصة لهم باقية فما يرتؤون من انزال القرآن على رجل عظيم هذه العظمة المالية الفارغة انما هو من ضلال رأيهم وما يزينه لهم شيطانهم «وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » (٧٣) فادعهم يا محمد ودعهم وشأنهم «أفانت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين» واستمسك «بالذي اوحي اليك إنك على صراط مستقيم * وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» فيه تذكرة لكم وذكر بين الناس ما أخذتم به ودعوتم اليه، وان ما يعبده المشركون لا دليل لهم عليه «واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » (٥٤) ليكون استشهادك باهل الكتاب وما انزل اليهم، وهذا موسى من قبلك لقي من فرعون ما كان سبب إهلاكه إذ قال لقومه ساخراً من رسولنا «ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ؟ * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين [يعني موسى] ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب او جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه [بمثل هذه الترهات من القول واستكبر عليهم]فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » (٥١-٥٤)

فاهلكناهم وجعلناهم مثلا يعتبر به من يلحق بهم ، ثم ذكر من جدل المشركين ماقالوه اذ ضرب لهم المثل بعيسى بن مريم فقالوا أآلهتنا خير أم هو ، وما هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل، واتبع ذلك من الآيات بما يناسب قصة عيسى وانه دعا الى الله وعبادته فاختلف الاحزاب من بينهم ، وسيرون يوم القيامة ظلمهم يوم لاينفع نفساً غير ما اكتسبت، ألأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فتناصرهم في الدنيا على أباطيل المعتقدات سيكون عليهم حسرة، وذكر بعد ذلك من شؤون المتقين ماينعمون به في الاخرة وذكر من عقاب المجرمين مافيه تذكرة اذ يقال لهم ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، (٧٨) ورد على المشركين بعد ذلك افحم رد ببيان اتباع الحق وحده بما امر به وذلك اسمى درجات التجرد في سبيل الحق والبعد عن الهوى وهو انموذج من منطق الاسلام وهداية القرآن ، قل ان كان للرحمن ولد، فانا اول العابدين، ولكن سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون ، وتتابعت الآيات فيما يناسب ذلك وختمت السورة بما أمر به الرسول من خطة «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» فهي تتناول صورة من صور الصدود عن الاسلام وما لقيه الرسول فى دعوته من استهزاء به اعتزازا بالمال والسلطان فبين لهم تعالى هوان ماأوتوه ، وبين للرسول ما كان من فرعون وما اصاب

موسى منه مما صبر عليه ليكون على هذه الخطة في صبره ، وفي خلال ذلك تزييف لبعض معتقداتهم التي استمسكوا بها وتبيان للحق في دعوة القرآن التي دعوا اليها ومن بعد الزخرف سورة الدخان

الدخان سورة مستهلة بالتنويه بالقرآن ووحيه وما سيكون من عقاب من لم يؤمن به وما كان من فرعون وقومه من استكبار حتى اذا تخلوا عما كان لهم من مال وملك « فما بكت عليهم السما والارض وما كانوا منظرين »(٢٩) وهؤلاء كفار قريش ان جروا على سنن الكفر بانكار البعث فان لهم عبرة ايضا بقوم تبع والذين من قبلهم أهلكنا هم انهم كانوا مجرمين * وماخلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين * ماخلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لايعلمون »(٣٧ ـ ٣٩) وذكر بعد ذلك يوم الفصل يوم القيامة الذي أنكروه بانه سيفصل فيه تعالى بينهم ويريهم مايعدهم مع مشهدين: عذاب القيامة ونعيمها مختتما السورة بالتنويه بالقرآن وانذار المشركين بقوله « فانما يسرناه [اي القرآن] بلسانك [العربي] لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون »، فكانت هذه السورة ملخصة مؤيدة لما سبق في السورة الآنفة من هوان ماينعم به المشركون مبينة مكانة الحق من هذه الشريعة في دعوتها والفصل فيه وأن الهلاك ينتظرهم في الدنيا والعقاب في الاخرة إن لم يروا هذا الحق الذي قام عليه نظام الخليقة في السماء والارض في الدنيا

والآخرة ومن بعد الدخان سورة الجاثية

الجاثية تتمم شرح ما انطوت عليه السورة الانفة من معاني الحق الذي قامت عليه السموات والارض مما ذكر تأييداً لدعوة القرآن فاستهلت بتنزيل الكتاب «من الله العزيز الحكيم» وان «في السموات والارض لآيات» للمؤمنين، الموقنين، الذين يعقلون، وأن هذا القرآن بآياته يوحي به تعالى الى الرسول بالحق كهذه الآيات التي قامت بها السماء والارض بالحق، ثم توعد كل أفاك أثيم «يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً» فالمأثم والاستكبار بعد قيام البرهان بآيات الله ودعوتها وما تدل عليه والاستهزاء بها مدعاة العقاب من الله الذي سخر للانسان «ما في السموات وما في الارض» مما فيه آيات «لقوم يتفكرون» فيروا في الخالق وخلقه والانسان وما حوله ما يذكرهم بربهم ويجعلهم ملزمين بالايمان بما جاء به الرسول الاعظم في قرآنه، واتبع ذكر ما سخر له بما ألزم المؤمنين به من سيرة بقوله «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله» (١٤) فعليه جزاؤهم على قاعدة «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها» (١٥) ثم ذكر قصة بني اسرئيل وما أوتوه من «الكتاب والحكم والنبوة» وانهم رزقوا من الطيبات وفضلوا على العالمين فاختلفوا بعد ذلك بغياً بينهم، فذكر ذلك تحذيراً موطئاً لتبيان ما على الرسول ومن يدعوهم بقرآنه مبيناً ما في دعوته بقوله «هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون» (٢٠) وتأييداً

لهذا الوصف للقرآن وأنه الحق تخطى ذكر الانكار الى التعريض بما يكون المنكر عليه مستنكراً مايكون منه متوعداً قائلا :«ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ؟ [لئن كان هذا ظنهم]ساء مايحكمون»(٢٢)فان نظام الكائنات بما فيها نظام الانسان ينافي ذلك ، وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون»واستنكر بعد ذلك اتباع الهوى من دون هدى الله مما يكون سببا اوليا لعدم الايمان بالقرآن كما كان من قبل فيمن ذكرهم من قوم موسى،غير انه ذكر هنا المشركين من العرب غير الكتابيين مبينا انها حالات نفسية واحدة تجمع بين الكافرين بالقرآن من المشركين وبين الكتابيين المنكرين في هذا الصدود على سواء ، فانكر عليهم عدم الايمان بالله مما عبر عنه القرآن بقوله:«وما يهلكنا الا الدهر ،وما لهم بذلك من علم،إن هم إلا يظنون» (٥٢)يتخذون الظنون مع الجهل الذي لاعلم معه اتباعاً للهوى ثم ذكرهم بالله وأن مصيرهم اليه يحاسبهم مصوراً ماسيلقون بقوله:«وبدا لهم سيآت ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن» وختم هذا بحمد الله على عدله ودعوة الحق قائلا:«وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم»،فهي سورة تبين الحق في دعوة القرآن وايات الله المؤيدة لها في خلقه وتعرض لمن صد عن الهدى اذ جاءه كبني إسرائيل بغياً

منهم وأن على تعطهم من الصدود ما كان من مشركي العرب اتباعاً لاهوائهم بغير علم اذ يستهزئون منكرين وانهم سيلقون جزاء ذلك يوم القيامة فلايفيدهم استكبارهم وهزؤهم لان نتيجته هلاكهم وهو لايضير الله سبحانه وله كلمة الحق، ودعوته والحمد والسلطان كبرياء في السموات والارض بعزته، ولكن نظام الوجود وعدل الحساب من حكمته «وهو العزيز الحكيم» ومن بعد الجاثية سورة الاحقاف

الاحقاف سورة مستهلة ببعض ما اتت عليه السورة الآنفة من تنزيل الكتاب وان دعوته حق بدليل ان الله اوحى به وما خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق ثم ذكر ماينافي ذلك من اشراك وما يزعمه المشركون عند انكار الرسالة من انها محض إفتراء دافعاً ذلك بان الوحي على الرسول الاعظم جرى على سنن الرسل من قبله منذراً مبيناً زبدة تعاليمه بقوله: «إن الذين قالوا ربنا الله [فامنوا] ثم استقاموا [بعملهم وسيرتهم في حياتهم] فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون» (٣١) ثم ذكر قصة من يدعى الى الايمان من قبل ابويه فيأبى منكراً للبعث مسيئاً اليهم، وبين حق الابوين وحنانهما بصورة تبين ان المرء لايعرف تمام المعرفة قيمتها حتى يبلغ اربعين سنة فتكون له ذرية ويبلغ تمام الرجولة ثم اتبع القول منذراً فقال فيما قاله: «ويوم يعرض الذين كفروا على النار [فيقال لهم:] أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم تجزون

عذاب الهون [مبيناسببه بقوله] بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» (٢٠) وذكرهم بقوم عاد إذ جاءتهم ريح اهلكوا بها «فاصبحوا لا يرى الامساكنهم» (٢٥) «فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٢٦) وأن آلهتهم لم تحل دون هلاكهم لأنها لا تملك من دون الله سلطة وما هي الا من اوهامهم وافترائهم على الله بعبادتها وإشراكها معه» وبين بعد ذلك أن القرآن «يهدي الى طريق مستقيم» على لسان من سمعه من الجن فآمن به ذاكراً من الايات ما يدل على البعث الذي يستبعده المشركون فيكون سبب كفرانهم قائلا «اولم يروا ان الله خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى؟ بلى! انه على كل شيء قدير» (٣٣) فالكفر بذلك يقابل بعقاب حق يوم القيامة وختمت السورة بعد ذلك بدعوة الرسول بقوله: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم [اي العذاب للمشركين] كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون» ؟ ومن بعد الاحقاف سورة محمد

محمد سورة جاءت بعد السبع الحواميم التي بينت الدعوة الاسلامية بمعتقداتها وجادلت الكفار بها فاتت هذه السورة على قتالهم فاتبعتها بناحية عملية خطوة ثانية من بعد

الجدل وبيان العقيدة فهي مستهلة بذكر الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله واتباعهم الباطل وأن على المؤمنين قتالهم دفعاً لطغيانهم مبيناً ثوابهم وكيف أضل الله الكافرين أعمالهم جرياً على سنته فيمن اهلكهم الله مردداً ذكر الجنة وثوابها للمتقين قائلا « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم » (٢٤) وذكر من هؤلاء فئة ممن يحضرون مجلس الرسول «حتى اذا خرجوا من عندك [يا محمد] قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً [محمد] أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم» فسيرون عقابهم ، واما أنت وصحبك فلكم سبيلكم من دونهم «فاعلم انه لا إله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» (١٩) وبين ان منكم من يرى هذا الصدود فيود ان لو يؤمر بالقتال «ولكن لو انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال» فان فيكم ضعفاء ينظرون الى الرسول «نظر المغشي عليه من الموت، فاولى لهم طاعة وقول معروف » يتدربون عليها واذا اقتضت حكمة الجهاد الامر به فحينئذ يجب الثبات« فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »محذراً من أمر يتصل بالجهاد بقوله:« فهل عسيتم ان توليتم [من التولي فراراً مما وجب عليكم أو من الولاية بان كانت لكم السلطة او وليتم امركم فئة فاسدة على هذه الشاكلة] ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم »تحذيراً ينطوي على تبشير فيما سيؤول اليه أمرهم من سلطان من جهة المانع الى فريضة الجهاد من

جهة ثانية التي تكون سبباً له، وذكر من ثم المرتدين من بعد ماتبين لهم الهدى -(وهم من المنافقين)- انما ما لما كان تحدث به عن احوالهم قبلا وذلك في معرض الانذار بالبوار وتبيان حكم الجهاد، وقد بين الحكمة في هذا النظام الذي اقتضى وجود ايمان وكفر ونفاق قائلا: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ؟» وختم السورة بما يناسب ذلك من ذكر الكافرين والمؤمنين وتحريضهم قائلا «ولا تهنوا وتدعوا الى السلم [من تخاذل] وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم» داعيا الى الانفاق في سبيل الله منذراً المؤمنين فيما كلفوا به قائلا: «وإن تتولوا [عن القيام بما امرتم به] يستبدل [الله بكم] قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم» فهي سورة مستهلة بذكر الجهاد والايمان والنفاق وحالات كل فئة مع ماينا سب ذلك، وفي الآيات ما فيها من مراعاة لاحوال النفوس بالتمهيد للجهاد جريا مع حكمه ومقتضياته من صبر وبذل وانفاق وثبات وفي ذلك مايوضح في كل آية مافيها من صلة تربطها بما قبلها وبعدها، ولن يتضح ذلك تماما إلا بمعرفة ما كان عليه المسلمون في هذه المرحلة من الاطوار النفسية وما كان عليه المشركون والمنافقون وما بين دعوة الحق ببرهانها والجهاد من بعدها، وقد مهد للامر بالجهاد في مطلع السورة بذكر الكافرين والمؤمنين باعتبارهما العنصرين المتحاربين ثم شرح الداعي

الى ذلك لك من معاملة الرسول وصحبه وموقف المشركين والمنافقين مبينا بالتدريج ماقدمنا الى الجهاد وختم به السورة مرغباً ، وهذه طريقة القرآن في عرضه في فكرة تدعم باسبابها ويكون ختام السورة مؤيداً مبدأها مما ترى فيه وحدة الموضوع تربط ما بين ذلك من الآيات بمناسباتها باتمام معنى او شرح فكرة بالتفات او استطراد او جملة معترضة او نحو ذلك حسب الملائمة للموضوع الذي توجه الخطاب اليه وأثره في نفس سامع القرآن . ومن بعدها سورة الفتح .

الفتح تتم معنى السورة الانفة بما ينجم عنه فمن بعد الجهاد فتح بدواعيه وقد استهلت بان الفتح لمكة واقع « فتحاً مبيناً » بما يكون من كر على المشركين الذين أخرجوا الرسول وصحبه اذ هاجروا الى المدينة بعد الحبشة اولى وثانية واذ نقضوا العهد في صلح الحديبية ، كراً يغفر الله به للرسول ما تقدم من ذنب وما تأخر مما يسمى ذنباً بالنسبة لرفعة مقامه وقدما قيل : سيئات الابرار حسنات لمن دونهم ، ويتم نعمته عليه على الرسول وه ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا » وذكر بعد الرسول اصحابه والسكينة التي تنزل على قلوبهم بصبرهم وجهادهم « ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » مبينا بان « لله جنود السموات والارض » فحين يدعوهم للجهاد داعية الفتح فانما يدعوهم جريا مع مقتضى علمه وحكمته ، « وكان الله عليما حكيما » يريد لكم المثوبة « ليدخل المؤمنين

والمؤمنات جنات...»، «ويكفر عنهم سيآتهم» ويعذب بايديهم المشركين والمنافقين، ثم ذكر غاية الدين الذي يجاهد في سبيله بانه مجرد عن المطامع الدنيوية «لتؤمنوا بالله ورسول وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا» (٧) فليس وراءه مقصد إلا إعلاء كلمة الله خالصة، والمجاهدون جنده يسلطهم على المنافقين والمشركين اخذاً لهم بذنوبهم بعد اصرارهم وعنادهم وسوء أعمالهم مما أفاضت به السورة الآنفة وعرضت له الحواميم وماقبلها بشرح مظاهره ودواعيه، ثم ذكر من مواقف الجهاد الذي استوجب الفتح موقف البيعة قبيل صلح الحديبية اذ حسب المسلمون أن غدر المشركون بسفيرهم عثمان بن عفان حين دخل مكة مبيناً للمشركين ان الرسول جاء للطواف والتضحية لا ليدخل مكة بعد اخراجه منها محاربا أهلها، فكان موقف البيعة هذا عهداً لله، ثم اتبعه بمن كان على عكس ذلك متخلفاً ومن كان منافقاً مفصلا من اخبارهم ما كان منهم يومئذ مستدركا برفع الحرج عمن تخلف عن الجهاد لسبب كالمرض، مبينا بعد هذا ما كان للمبايعين من فضل «فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة» (١٨) «وكف ايدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين [بنصر الله لهم بعد ضعفهم] ويهديكم صراطا مستقيما» (١٩) وذكر حال فتح مكة وما كان يومئذ وختم السوره بما بشر به الرسول قبل الفتح من رؤية ذلك في منامه وأنه تعالى «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين

كله و كفى بالله شهيداً ، وذكر الرسول وصحبه بما كانوا عليه من خلق «أشداء على الكفار [في مواطن الشدة مما تتحدث عنه هذه السورة من جهاد و كفاح] رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا» فكان وعدا للمؤمنين على الله أن يثيبهم «مغفرة وأجراً عظيما» وهذا ما كان في الفتح لمكة وبذلك ارتبط بدء السورة بختامها وكان ما بين ذلك من الآيات شرحاً وإيضاحاً للعوامل والحوادث التي ادت إلى ذلك لتكون فيها هداية الناس وعبرة يطمئن بها المؤمنون لنصر الله ومن بعد سورة الفتح الحجرات .

الحجرات مستهلة بخطاب المؤمنين بما يناسب ختام السورة الانفة بامرهم بان لا يقدموا بين يدي الله ورسوله ولا سيما بان يقطعوا في امر قبل معرفة حكمه وان يتقوا الله ويغضوا عند الرسول اصواتهم دلالة على التوقير له ايمانا منهم ثم اشار الى ما كان من جماعة نادت الرسول على خلاف هذه الاداب جهالة منهم ثم استأنف تنبيها آخر فتح له القول بندائه « يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا [مخافة] ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٦) مبينا ان الرسول « لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم » ذاكرا من بعد ذلك الحكم في اقتتال طائفتين من المؤمنين باعتبار ان هذا قد يتوقع بنتيجة ما نهاهم عنه

من عدم تدبر اخبار الفاسقين والتعجل في الامر قبل معرفة حكم الله ورسوله ثم ذكر بعد ذلك سببا من اسباب الخصام وهو سخرية قوم بقوم وما الى ذلك من سوء الظن والتجسس والغيبة مبينا ان الناس خلقوا من ذكر وانثى بنسبهم قائلا «وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فالانساب والاجناس وسيلة تعارف بين الناس وإلا ففيم يتميز انسان عن انسان الا بالتقوي وهي سمة انسانية جامعة لا استعلاء فيها ولا بغي، ثم ذكر بعد ذلك طائفة تظاهرت بالايمان ولم يدخل قلبها فهي تمتن على الرسول بانها لم تحاربه فقال سبحانه «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله، اولئك هم الصادقون (١٥) فلا تمنوا علي اسلامكم » بل الله يمن عليكم ان هدا كم للايمان [فاوضح لكم طريقه] ان كنتم صادقين » وختم ذلك بما يناسب الايمان باعتباره امرا نفسيا خفيا بان الله مطلع عليه قائلا « ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون » فهذه سورة من اولها الى منتهاها تذكر ما يعرض للمؤمنين من اخبارهم وما يكون بينهم وتتحدث عن الايمان عارضة انموذجا من ضعفه داعية الى ما فيه كماله، فالايمان وما يتفرع عنه من حياة المؤمنين واجتماعهم مبتدئة بموقفهم من رسولهم هو محور وحدة الموضوع في هذه السورة . ومن بعدها سورة ـ ق ـ

ق* سورة جاءت بعد ذكر الايمان والفتح وما يعرض

للمؤمنين في السور الثلاث الآنفات الى تحريض بتبيان دواعي الايمان وخطل الشرك وماوراءه فعادت كرة جديدة بذكر القرآن وحال المشركين من استغراب البعث فردت عليهم بقوله تعالى: «قد علمنا ماتنقص الارض منهم [من الناس بموتهم افرادا وامما بل واجزاء اجزاء مما يفنى منهم آونة بعد اخرى بعد موتهم] وعندنا كتاب حفيظ » يذكر كل شيء ولاسيما اعمالهم فلا يعجزنا أن نبدلهم مانقص منهم من اجسامهم فنردهم الى حياة ثانية يبعثون فيها على ماكان منهم في حياتهم الاولى في الدنيا من عمل، وفي هذا العلم برهان على البعث يضم الى براهين اخرى ذكرها القرآن الكريم من (قدرة) ونماذج ضربها بمثل احياء الارض الموات وفقا لمبدإ (التطور) اذ كنتم امواتا فاحياكم وهلم جرا، مبينا ان في انكارهم للبعث تكذيبا بالحق لما جاءهم، وانهم في ذلك على اضطراب ليس لهم رأي قويم ونظر صحيح في افكارهم هذا وكفرهم بالحق الذي نزل على محمد الرسول فقالوا عنه اقوالا متناقضة متخالفة لارأي فيها ولاحجة ثم ذكر السماء ببنائها وزينتها والارض بما عليها ونباتها بما فيه زينة وبهجة فضلا عن كمال في الصنع ودقة فيها تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » يتفكر بان لهذه المخلوقات صانعا يرد الخلق اليه فيرجع بنفسه اليه فيوفيه حقه وذكر ماينا سب ذلك من الايات تأكيدا على ان في نظام هذه المخلوقات (ولاسيما باحياء الناس بالرزق واحياء البلدان

بالمطر)-دلالة على قدرة الله وأن للبعث سابقه من نظام الخلق والايجاد في الحياة فيها برهان عليه فلا محل لنكرانه والتعجب منه ، حتى اذا قام الدليل بذلك انتقل الى الالماع الى الامم الخالية مبيناً مصيرها باسبابه من تكذيب الرسل فحق الوعيد لاصرارهم بهلاكهم في الدنيا وحق العقاب عليهم في الآخرة ثم رجع مستنكراً انكارهم للبعث واصرارهم على الكفر بذكر ما ينطوي عليه هذا الانكار من وصفه جل سبحانه بالعجز قائلا «افعيينا بالخلق الاول» اذا خلقنا الكائنات فنفدت قدرتنا فلا نستطيع البعث او كان ذلك الخلق مجهداً لنا فلا نستطيع الاحياء بعد الموت « بل هم في لبس من خلق جديد » يتعاقب على الانسان اذ ينمو ويفنى ويحل بعض جديد محل مافني منه ، وكذلك الا ترى بقية مايحيط به من الموجودات، في تعاود الموت والحياة عليها دليلا، ثم ذكر علة هذا الانكار من تكوين الانسان النفسي قائلا «ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه» فصدر ماهو فيه وسوسة نفسه بما يجول في صدره من ريب وشبه لا يتثبت فيها بنظره فيرى مايدل عليه النظر مما أتى على ذكره في مطلع هذه السورة، وبين من ثم بقوله « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (١٦) مع ماتبعها من الآيات مصير الآخرة وما يكون بين الانسان وقرينه الذي يوسوس له داعيا لما فيه الكفر عناداً مانعا للخير متكبراً معتديا مريبا حتى يلقى في جهنم فتمتلئ بهم، ثم ذكر من كان على

عكس ذلك من خشية الرحمان والايمان به والرجوع اليه بقلب منيب اذا عمل عملا حاسب نفسه قبل ان يعرض على ربه فيحاسبه قائلا: «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد» وانه تعالى خلق السماء والارض في مدة وجيزة في ستة ايام قائلا: «وما «مسنا من لغوب» فيعجزنا البعث، وخاطب الرسول بعد ذلك بما يجب عليه من صبر وعبادة مؤكداً له ماسيكون مما عرض قائلا «انا نحن نحيي ونميت والينا المصير * يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير» فهو حتما كائن لاريب فيه فدع مايقوله المنكرون «نحن أعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار [فتلزمهم بالايمان مكرها] «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» فان القهر له جل شأنه فهو يحاسب ويعاقب يوم القيامه ويهلك في الدنيا بعد ان يحق وعيده اذ لايبدل القول لديه فلابد من النظرة فهذه سورة دعوة الى الايمان بتأييد البعث الذي يؤدي نكرانه الى عدم الايمان وتأييد تحقيقه من نظام الوجود وما فيه كاحياء الناس والأرض وسهوله البعث والترغيب به بعرض ماسيكون من بعده ليكون ذلك ادعى الى التأثير في القلوب، الهداية، من بعدها سورة الذاريات

الذاريات مستهلة بقسم انتهى الى تأكيد البعث بما فيه حياة وايجاد وقدرة وأن المنكرين له «لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك» (٧ ـ ٩) وذكر ما سيكون يوم الدين من نار يعاقب بها وجنة

ينعم بها الذين «كانوا قبل ذلك محسنين» في حياتهم الدنيا« وفي الارض آيات للموقنين* وفي انفسكم افلا تبصرون» ثم ذكر امثلة من الامم الخالية التي يجري المشركون على خطتهم بتعنتهم على رسلهم قائلا: «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا [عن رسولهم إنه] ساحر او مجنون * أتوا صوا به ؟ بل هم قوم طاغون» فان الطغيان مبعث هذا العناد والكفران فعليك ان تذكرهم [يا محمد] «فان الذكرى تنفع المؤمنين» (٥) وبين بعد ذلك ان العبادة التي يصدون عنها هي غاية كمال الانسان لانه لم يخلق لغاية مقصودة لذاتها غير هذه الغاية فجميع المساعي في الحياة ذاهبة معها ولا يبقى الا العبادة في حدودها من التقوى والاحسان والعمل الصالح في هذه الحياة، وخص بعد ذلك الرزق بالذكر لانه محور اول لنشاط الانسان وابراز مواهبه وكوامن حيويته وسبب لابتلائه وفتنته فتنة امتحان واختبار تجربة ليجزى بما اكتسبت يداه، وهو في الوقت نفسه سبب اول من اسباب غوايته في سعيه له او افتتانه واغتراره بما له وختم السورة منذراً الظالمين بأن لهم «ذنوباً مثل ذنوب اصحابهم» من الامم الخالية. «فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» ومن بعد الذاريات سورة الطور

الطور سورة مستهلة بقسم في مكان وحي نزل على موسى عليه السلام « والطور » وكتاب الوحي وما اجتمع حوله مقصد

الوحي من العبادة التي الم اليها في ختام السورة الآنفة «والبيت المعمور» وما في السماء باروع مافيها «والسقف المرفوع»، وما في الارض باعظم مافيها «والبحر المسجور» بهذه الاقسام التي تدل على الروعة والقوة وتفسح الآفاق للسامع آفاق ماأوجزت انقسم به حتى تنتهي به لتأكيد ماتوعدت به من عقاب يوم القيامة وثواب ينعم به المتقون قائلا للرسول (ص) بعد هذا «فذكر» بهذا المصير نافياً ماتقول به المشركون من الاقوال المختلفة مبيناً بطلان جميع اقوالهم ومعتقداتهم وماهم عليه من طغيان وعناد خاتما السورة بدعوة الرسول (ص) الى الصبر والعبادة قياما بواجبه كرسول في دعوته وكبشر يقوم بعبادته «واصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه، وادبار النجوم» ومن بعد الطور سورة النجم

النجم : تلك استهلت بذكر جبل الوحي وهذه ارتقت الى أفق من آفاقه بعد براعة تامة فيما اوجدت لها من صلة بختام السورة لتكون قسما مروعا في مستهل هذه السورة والتحدث عن صدق الرسول برسالته وما كان من موقف يوم العروج ! ه، وهو من مشاهد الوحي في اروع صوره، فاستهلت بقوله تعالى «والنجم اذا هوى * ماضل صاحبكم [محمد] وما غوى * ومانطق

عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحي » ولقد كان ثبت الجنان مالكاً لقواه «افتمارونه على ما يرى » على يقين مما يخبركم به ، وكر عليهم مبيناً وجه العناد بإعماتهم بالباطل بغير بينة ولا روية بينما الذي يرى حقاً يقيناً يتعنتون عليه قائلا «أفرأيتم اللات والعزى» مما تعبدون من دون الله قائلا بحقهم : «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس» بيد أن الانسان لا حول له ولا طول لينال مناه بل الامر لله حتى أن لا شفاعة لديه تعالى «إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» (٢٦) ذاكراً في غضون ذلك بصدد بعض معتقداتهم أنها ظن «وان الظن لا يغني من الحق شيئاً» (٢٧) فعلى الرسول حيال ذلك أن يدعهم وما هم عليه فسيحاسب تعالى خلقه «ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » وذكر من الذين انكروا على الرسول رسالته بذكر رجل قيل هو الوليد بن المغيره اتبع الرسول حتى ضمن له احد المشركين ان يحمل العقاب عنه يوم القيامة فرجع الى قومه، مبيناً بذلك جهالة المشركين وطرفا من أحوالهم على اباطيل معتقداتهم فقيل له فيما قيل الا يعلم «الا تزر وازرة وزر اخرى * وان ليس للانسان الا ما سعى » «وان الى ربك المنتهى». وذكر تعالى من شؤونه ما اختص به مما يتصل بالانسان وحياته بانه «هو اضحك وابكى * وانه هو امات واحيى» وما الى ذلك «وانه اهلك عاداً الاولى» ومن على شاكلتها لطغيانها وكفرانها مبينا ان في ذلك دلالة على

وجوب عبادة الله وحده وان في خلقه للموجودات جميعا وتصرفه بالناس وماخلق في الدنيا والاخرة آيات تدل على ذلك فقال «فبأي آلاء ربك تتمارى» وختم السورة مبيناً بأن في هذا الانذار مايري الانسان يوم الحساب وان مثل هذا لايتعجب منه فيضحك ولكنه يستدعي ماامر الناس به لتكون لهم النجاة «فاسجدوا لله واعبدوا» ومن بعدها سورة القمر.

القمر مستهلة بايجاز ماأتت عليه السورة الآنفة بعد ذكر آية انشقاق القمر والتنويه بقرب الساعه مما يقوله الكافرين حين يروا آية كهذه الآية من أن مايأتي الرسول به «سحر مستمر» اتباعاً لاهوائهم مع ان الحقائق لابد ظاهرة «وكل أمر مستقر» (٣) وانهم على ذلك رغم ان قد «جاءهم من الانباء مافيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر» لمن كان على شاكلتهم من اتباع الهوى والاعراض عما يرون من الآيات وان مثل هؤلاء قد حقت عليهم الكلمة «فتول عنهم» يامحمد فسيرون هول ماينكرون يوم الاخرة في يوم عسر فانهم يجرون على خطة من سبقهم مثل قوم نوح الذين قالوا عنه بعد تكذيبه «مجنون وازدجر» عن ابلاغ الرسالة بحؤولهم دون الدعوة وفيه الى مافي ذلك من آية لمن يعتبر قائلا: «ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن [من بعد ذلك] للذكر [للتذكرة] فهل من مدكر؟» ثم اتى على ذكر أمم من بعد نوح بذكر ماأهلكت

به وسببه مرددا هذه اللازمة تنويها بالقرآن وما ينذرهم به فكان في هذا التكرار ضرب من الايقاع يهز النفس هزا وكذلك شأن القرآن فيما يكرره سواء أكان ذلك باللفظ نفسه في السورة الواحدة ام بالمعنى كقصص الامم الماضية في سور مختلفة يأتي بها على اشكال من مناسبات تنزل في كل سورة منزلتها وكانت في الوحي تنزل بمراعاة الظروف ملائمة لسيرة الدعوة الاسلامية جريا مع الحوادث المقتضية حتى استجاب لها من كان يقاتلها فكان مثل خالد بن الوليد سيفا من سيوفها يذود عنها فهي حوادث تسير مع النفوس المتأبية تخشونة الصحراء وجفاء البداوة وغلظة الاعراب وهي آيات تسلس مقادها ترغيبا وترهيبا وزجراً وعظة الى غير ذلك مما اقتضته الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي احسن وختم ذكر الكفار الماضين في هذه السورة بقوله: «أكفاركم خير من أولئكم» فلا يهاكون مثلهم إن اصروا على عنادهم كأولئك حتى يستوجبوا الهلاك «ام لهم براءة» في كتاب «ام يقولون نحن جميع منتصر» جريا مع مفاخرتهم من يعادون، وزاد على ذلك خاتماً السورة من بعد مصير الكافرين بمقام المتقين «في مقعد صدق عند مليك مقتدر» فهي سورة تذكير بالماضين بعد توالي الآيات بتبيان علة الكفر ومصيره على اختلاف الاسباب الداعية للهلكة ومن بعد النجم

سورة الرحمن.

الرحمن: سورة مستهلة بالتنويه برحمة الله وتعليمه القرآن وخلقه الانسان وتعليمه البيان تعظيما لشأن القرآن والعلم ومكانتهما من الانسان في خلقه وانهما مدار تدبره واعتباره وفوزه بالجنة مما اتت عليه السورة الآنفة واتت بتفصيل له هذه السورة بما ذكرت من آيات الله وما يناله المتقون من الجنان وما يصطلي في جحيمه المكذبون من النيران، وفي هذه السورة ذكر لايات الله في خلقه ودقة تكوينه وما أمر به عباده فذكر قائلا «الشمس والقمر بحسبان» لهما في سيرهما بروج ومنازل تجري على قواعد حسابية دقيقة لاخلل فيها كما سخرها الله آمراً أمينا ما في هذا الخلق من الدلالة عليه وتقديسه بما في السماء والارض بقوله: «والنجم والشجر يسجدان» وان في ذلك وفاء حق الالوهية وهذا عدل وحق قامت عليه السماء وبه تستقيم حياة الانسان على الارض فيما أمر به فرفع السماء «ووضع الميزان» لكل شيء «ألا تطغوا في الميزان * [يابني الانسان] وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» فان في ذلك صلاحكم ولا مطلوب غيره إذ انه تعالى كما انعم بايجاد ما أتت عليه الايات الانفة فكذلك أنعم بان خص الانام بهذه الارض فانبت فيها ابتداءها «والارض وضعها للانام * فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام * والحب ذو العصف والريحان» مما فيه نعمة على

الانسان ودلالة على رحمة الرحمن وخلقه مما يجب على العاقل تدبيره وهذا القرآن ببيانه ينبه الانسان إليه ليصله بخالقه ويريه مكانته في الحياة وأن فيما دعي اليه انتظام امره كانتظام هذه الكائنات بدقة نظمها التي تسير عليها :«فبأي آلاء ربكما تكذبان» بعد هذه الايات واتخذ من هذه الاية لازمة مكررة في هذه السورة بعد ذكر ما اتى عليه على النسق الآنف ذاكرا آياته في الدنيا والاخرة واقامه العدل في مثوبة وعقوبة، وختم السورة بما يناسب مستهلها وما جرى عليه منها قائلاً بعد ذكر نعيم الجنة والتنويه بآلاء الله فيها «تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام» فهي سورة رحمة بعد القمر التي سبقت منذرة ومن بعدها سورة الواقعة

الواقعة تتناول ذكر الاخرة باسمها وموضوعها وهي تجمع بين اسلوبي السورتين الانفتين وقد استهلت بذكر القيامة وان الناس سيكونون على ثلاثة طبقات: اصحاب ميمنة وشأمة وسابقين مقربين فذكرهم بهذا التقسيم وما سيلقون بهدوء منطق بعد سياق السورتين الانفتين الخطابي وفصل القول في هذه الطبقات تفصيلا يحرك المشاعر رغبة ورهبة خاتماً السورة بقوله الرسول «ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم» ومن بعدها سورة الحديد .

الحديد سورة مستهلة بما ختمت به السورة الانفة بانه «سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم» تبياناً للانسان بأن

مادعي اليه في ذلك يجري على نظام هذه الفطرة بكائناتها السماوية والارضية وان له تعالى في ذلك العزة فلن يضره الكفر به،وان الله يدعو الانسان فيما يدعوه اليه ويحاسبه عليه جريا مع حكمته سبحانه ولهذا كان التلازم بين وصفي العزيز الحكيم في مواطن كثيرة جمعاً بين الحكمة والعزة الالهيتين ،وانسافت هذه السورة بعد السورة لآئفة باتباع طريقة غير طريقتها الخطابية وذكر الجنة والجحيم بما يناسب معنى التسبيح الذي استهلت به مبينة دواعيه بقدرة الله مالك السموات والارض وانه «هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» وانه «خلق السموات والارض» وعلم الخفايا واحاط بالزمان والمكان وما يتصل بذلك مما يملاء القلب خشوعا وايماناً ويدعو الى التسبيح ذاكراً ثواب الايمان،وانتقل منه الى مايلازمه من اخص خصائصه وابرز مظاهره من انفاق في سبيل الله قائلا «ومالكم لاتؤمنون بالله ؟ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم» هذا الرب الذي مرت بذكره الايات تنويها به بما يوجب الايمان به والتسبيح له مبينة ان الرسول في هذه الدعوة صادع بامر ربه الذي انزل عليه القرآن «آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور» ثم سماء لكم عن عدم الانفاق في سبيله منتهيا من ذلك بعد ذكر الثواب عليه الى ما كان من المنافقين الذين كانوا يحولون دون الايمان بالله والانفاق في سبيله مبيناً ما سيصيرون اليه

ثم تألف المؤمنين بما وجب عليهم من ذلك وقد فتر منهم من فتر بعد الهجرة اذ اصابه الرزق والنعمة في المدينة وكانوا في مكة مجدبين فقال لهم « ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم »(١٦) واتبع ذلك بان من بعد موت الارض حياتها وفي ضمن ذلك حياة الناس بعد موتهم وحسابهم على نمط ما أخبرهم ، فما لهم من الدنيا « لعب ولهو وزينة » وما الى ذلك من متاع الغرور الذي لايليق بالعاقل ان يغتر به بالتسابق الى ماهو ابقى مما يستوجب مغفرة الله ورضوانه مبينا في ذلك فضل الله على المؤمنين وان ما اصابهم قد جرى بعلم الله فعين الله ترعاهم « لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور » فيكون المؤمن اطمأنينته ثابت النفس في يسر الدهر وعسره مبينا ان هذا الحزن في المصيبة والاختيال بالنعمة طبيعة من يبخل ويأمر بالبخل ممن حصر نفسه في متاع الدنيا ولم يعلم ماوراء ذلك من قدر الله وحسابه بثوابه وعقابه ، واتبع ذلك بان في الرسالة مايبين للناس مافيه الهداية بالكتاب وإقامة العدل بالميزان وان مما اعده في خلقه « الحديد » فيه بأس شديد ومنافع للناس « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » تبيانا للجهاد بمكانته من الدعوة تحذيراً للكافرين والمنافقين ممن أتى على ذكرهم في هذه السورة وقد

سميت هذه السورة «الحديد» لذكر الحديد فيها وكذلك تسمى معظم السور لا آيات بل كلمات تمر بها وتكون اصلا من اصول معانيها، وقد بين بعد ذلك نمط الرسالة إلا لهية ذاكراً بعض من ارسلهم وما كان من اهتداء قوم وفسوق آخرين خاتماً السورة بخطاب المؤمنين الكتابيين ان «اتقوا الله وآمنوا برسوله [محمد] يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم» لئلا يعلم اهل الكتاب [اي ليعلم علما لاشبهة فيه هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالقرآن وصدوا عنه] ان لا يقدرون على شيء من فضل الله [فيحسبوه عمن ينعم الله به عليهم ولا سيما من فضائل الهداية . . .] وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» فهذه السورة في مقصدها الاول خطاب للمؤمنين وتعليم لهم بتبيان مايجب عليهم وتحذيرلهم بالتعريض بغيرهم ومن بعد الحديد سورة المجادلة

المجادلة وهي من حياة المؤمنين وما عرض لهم صورة تتناول شؤنهم الخاصة وما لابسها فهي مستهلة بذكر امرأة وهي «خولة بنت ثعلبة» جاءت الرسول مجادلة له فيما ظاهر عليها زوجها مع بيان حكم ذلك وانه حكم من حدود الله الذي يعلم مافي السموات والارض وانتقل بذلك من هذا الحدث بين الزوجين وحديثها الى النجوى بصورة عامة وما يكون منها بين الناس وانتهى الى التعريض

بالمنافقين «الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول» وانتقل من النجوى الى مايلازمها وهي المجالس فبعد ان خاطب المؤمنين في النجوى قائلا لهم بان «تناجوا بالبر والتقوى» خاطبهم ثانية بـ «يا ايها الذين آمنوا» كانه بحث جديد يستفتح القول فيه تنبيها لخطورته وان الايمان اصل يبتنى عليه حكمه فيما يأمرهم به معلما لهم مايجب عليهم من آداب المجالس بهذا النداء ولا سيما مجلس الرسول بعد ان استهل السورة بما كان من مجادلة وحذرهم من المنافقين فيما يتبعونه في مجالسهم وما يتحلفون به للمسلمين سترا لما يعلم الله من مكائدهم مختتما السورة بما انطوت عليه من تبيان حدود الله فيما ذكره من ظهار ومناجاة بالاثم واتفاق مع الكافرين نفاقا من المنافقين بقوله «إن الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الاذلين كتب الله لاغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز» مبيناً في ذلك أن العاقبة لا تكون لهم والنصرة للمؤمنين وحدهم ذاكرا المؤمنين في رابطتهم التي تحل محل انسابهم بقوله «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم او إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون» ومن

بعدها سورة الحشر

الحشر مستهلة كالسابقة بتسبيح الله وانه «هو الذى اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم» وهم اليهود اذ نكثوا العهد مع الرسول في المدينة في وقعة الاحزاب يوم الخندق بعد أن تحالفوا معه يوم (بدر) ونصره وتألبوا عليه اثر (أحد) وما اصاب المسلمين فيه ، فكان مطلع السورة كالآنفة فيما يستوجب تسبيح الله في خلقه وفيما هيأه من ارضه مما ذكره في السورتين وجعل ارتباط المعنى في خاتمة السورة الآنفة متمما بما اورده بعد التسبيح في هذه السورة ذاكراً بعد جلاء اليهود الفيء بحكمه وهذا مافيه توكيد واتمام للمعاني التي مرت بالسورة الآنفة من قوله تعالى «كتب الله لاغلبن انا ورسلي» ونوه بعد ذلك بالذين كتب لهم الغلبة من المهاجرين والانصار وما كان من أخلاقهم ثم اتى على ذكر المنافقين الذين تحالفوا مع الكافرين وانهم لم يغنوا عنهم ولم ينفعوا بما اتفقوا عليه حتى اذا انتهى من هذا العرض عاينا به توجه بالخطاب الى المؤمنين بما ينفي عنهم اخلاق الكفر والنفاق الذي ذكره قائلا: «ياايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد [فتحاسب نفسها قبل وقوفها بين يدي ربها] واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله» فتفوتكم الجنة وكان رأس الاثر في هذا التناسي للمعرفة الاولى والواجب الاول أن يخطيء الانسان

الفهم والواجب من دونها فيخطي نفسه بقدرها وحقها ومالها وماعليها فتسوء حياته في حاضرها وعقباها في الدنيا والاخرة فيخسر الجنة وخلودها، وقد انزل عليكم القرآن موجباً لخشية الله الذي لاإله الاهو خشية علم وعمل ،معرفة وخلق، خشية تسبيح وايمان ،وذكر من اسمائه الحسنى ماذكر من علم اذ ملك، وملك اذ خلق الى مايتصل بذلك، مختتما السورة به وانه يسبح له مافي السموات والارض وهو العزيز الحكيم، فكان كالمطلع توكيداً لمعناه واتماما لحلقة القول مما تتضح فيه وحدة الموضوع فى ارتباط مطلع بخاتمة . ومن بعد الحشر سورة الممتحنه .

الممتحنة : سورة مستهلة بما أتت عليه السورتان الآنفتان ايضاحاً لمعناه وتوكيداً له بقوله تعالى «ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون إليهم بالمودة ،وقد كفروا بما جاءكم من الحق، فأخرجوا الرسول وصحبه من بلدهم باكراههم على الهجرة ومنعهم من الايمان ،مبيناً علة النهي بانهم: «ان يثقفوكم [يظفروا بكم] يكونوا لكم اعداء ويبسطوا إليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون» وان هذه المودة إن كانت لصلة القربى بينكم فانها لن تنفعكم يوم القيامة وان لكم في ذلك اسوة حسنة في ابراهيم فانه عادى قومه واباه آزر بعد ان وعده بالاستغفار له؛ واتبع ذلك بما يتوجب في حال قطع

المودة من الالتجاء إلى الله بالاتكال عليه والدعاء له بقولهم: «ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا [بتسليطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله] واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم» مستدركا ان هذه المودة نهي عنها بسببها من مكرهم بكم اما الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم «فهؤلاء لا ينهاكم الله عنهم» ثم اتبع ذلك بخطاب المؤمنين بأخذ الحيطه فيمن يرد عليهم من النساء خاصة مدعياً بالايمان مبيناً الحكم -(فيمن تدع زوجها مؤمنة)- بأداء من المهر خاتماً السوره بما سيقت له من مودة الكافرين وتوليتهم بقوله «يا ايها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور» فهي سورة امتحان للقلوب المؤمنة ولا سيما النساء ومن بعدا الممتحنة سورة الصف

الصف مستهلة بان «سبح لله ما في السموات وما في الارض» تنبيها للانسان بأن إطاعته لربه وعبادته له وتسبيحه يجري على نظام الفطرة وينتظم مع الكائنات، ومن مقتضى ذلك ان لا يقول المؤمنون ما لا يفعلون (فيكون مع إيمانهم إطاعة الله ورسوله والجهاد في صف مرصوص عن دينه والجهاد في سبيله» حتى إذا كرر هذا قارنه بصورة خفية عما يجري على عكسه تحذيراً للمؤمنين بذكر موسى وعيسى ودعوتهما في قومهما ومقابلتهما بالايذاء على علم والافتراء بقولهم بان ما جاء به عيسى من الآيات البينات هو «السحر هذا بينما جاء عيسى بالحق مبشراً برسالة محمد (ص)

فان ارادوا إطفاء نور الله بذلك فان الله «متم نوره ولو كره الكافرون» وعلى ذلك فانه «هو الذي ارسل رسوله [محمدا] بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» واذ كان هذا يستوجب جهاداً في سبيل الله وبذلا فقد نص على ذلك بلغة محرضة وذكر التوبة وختم السورة بان يكونوا من الدعوة كحواريي عيسى لتكون لهم النصرة، وهكذا فان موضوع السورة في مطلعها وخاتمها تحريض لوفاء الايمان حقه من العمل والبذل جريا مع قاعدة من خلا من المؤمنين خلافاً لما كان من الكافرين، ومن بعد الصف سورة الجمعة

الجمعة سورة تبين بعد التسبيح لله بان الله ارسل محمداً في قومه «يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» من خلفهم وأعقابهم تعمهم الدعوة فضلا من الله، محذراً من التكذيب بالرسالة بما ضرب من مثل «الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها» بالصدود عنها وعدم القيام بحقها والاستفادة منها ومن احكامها وحكمها واستطرد لخطاب اليهود (تحذيراً من مثل نهجهم) - ولتبيان ضلالهم بان دعاهم الى ما يفضح دخيلتهم من حب الحياة والانغماس بها قائلا لهم «فتمنوا الموت ان كنتم صادقين»، وتزعمون انكم اولياؤالله واحباؤه من دون الناس، زعما فيه الادعاء والاغترار والاثرة، وتحداهم بفضيحة طويتهم قائلا:

« ولا يتمنونه أبداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين » وانهم سيحاسبون بما كانوا يعملون ، ولما كانوا باخص خصائصهم أحباء دنيا فقد تمت المناسبة (كما حذر من السير على نهجهم عامة) - بان خصص ما تميزوا به فوجه النداء للمؤمنين بان يلبوا دعوة الله منصرفين عن الدنيا وتجارتها عند صلاة الجمعة التي فيها دعوة عامة لسماع كلمة الله في الخطبة « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » منتقداً انصراف الذين سمعوا نداء التجار في عير تحمل الطعام فخرجوا من المسجد والرسول على منبره قائلا لهم «قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » فهي سورة تخاطب العرب بالاستجابة للدعوة خلافا لما كان من اليهود الذين انصرفوا عنها فاضاعوا الدين بالدنيا وكانوا ظالمين وقد خصص فيها القول في حكم من احكامها تحذيراً مما وقع بالانصراف عند الجمعة الى شؤون التجارة انصرافا الى الدنيا باضاعة شؤون الدين جهلا بمقتضى آيات الله وحكم كتابه وحكمة تعاليمه وآدابه مما نوهت به الآية الثانية في مطالع السورة ، ومن بعد سورة الجمعة المنافقون

المنافقون جاءت هذه السورة تتحدث عنهم بعد ان كان ذكر الامميين في سورة الجمعة ذكراً خص منهم المؤمنين بالتذكرة

ثم جاء تمام المناسبة للتحدث عن طبقة من العرب الاميين تتسم بالايمان في الظاهر وتبطن خلافه وهي طبقة المنافقين ، فهذه السورة ذكرتهم بما كانوا عليه وما كان منهم اذ أرادوا اخراج الرسول وصحبه من المهاجرين من المدينة جاهلين بأن الله يشهد لرسوله بصدق رسالته بما يغني عن مخادعتهم بشهادة لا فائدة منها ولا تحشرهم مع اهلها ، هذا الى استغناء عنهم واستهانة بهم مما استوجب التعزز فقال سبحانه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » حتى اذا عرض بهم توجه بالخطاب الى المؤمنين بما فيه بعد النفاق عنهم باخلاقه قائلا : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله » « وانفقوا مما رزقناكم » اغتناما للحياة وفسحتها قبل الموت اذ لا رجعة من بعده « فيقول [المرء] رب لولا اخرتني الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون » ومن بعد المنافقين سورة التغابن .

التغابن : سورة متممة لما انتهت اليه السورة الآنفة من ذكر الموت والعمل الصالح بان استهلت بتسبيح الله والحمد له والتنويه بقدرته وانه خلق الناس فمنهم كافر ومنهم مؤمن مع انه « خلق السموات والارض بالحق وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير » « وهو عليم بذات الصدور » مبينا سبب ذلك في سيرة من مضى من اهل الكفر بان قالوا « ابشر يهدوننا » منكرين البعث « قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم

وذلك على الله يسير * فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا والله بما تعملون خبير «فان يوم البعث يوم تغابن يفوز فيه السابقون من المؤمنين الذين يعملون الصالحات يفوزهم بالجنة «والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» ، وهذه مصيبة كبرى استطرد منها الى ذكر المصائب عامة وما يكون من شأنها مع الايمان بالله من طمأنينة للقلب فيها هداية الله بقوله «ما اصاب من مصيبة الا باذن الله، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم» (١٠) ثم نوه بما يقوم عليه الايمان من اطاعة الله ورسوله وان يتكل المؤمنون عن الله وبذلك مهد الى خطاب المؤمنين خطابا كأنما فيه استدراك لقول جديد، وما هو الا للتنويه به مع تمام صلته بما قبله بتخصيص بعد تعميم فانه بعد ذكره المصائب والايمان بتبيانه حدود الصلة بينهما في الآية الآنفة ذكر للمؤمنين ما يفتنهم وما يصيبهم من ازواجهم واولادهم واموالهم قائلا بعد ذلك «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» وختم السورة بما يناسب ختام هذه الآية بالدعوة الى الانفاق في سبيل الله الذي يجزي الانسان بما يقدمه وهو «عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم» وهذه السورة تسلسلت بآياتها ومعانيها مبتدأة باعم القول من تسبيح لله وذكر الانسان بايمانه و كفرانه

وامتداد الى بعثه ونشوره الى مايلازم حياته الى اخص مايجب ان ينبه اليه مما سيحاسب عليه حسابا لا يخفى معه على الله فيه خافية وهكذا دار بين التخصيص والتعميم ورجع من الاول الى الثاني واعاد الكرة بما تتلاحم به اجزاء السورة وترتبط به آياتها ويتحد في موضوع اساسي يتعدد ما تطوف حوله الآيات على اختلاف ما تأتي عليه من المعاني والاحكام بل وكذلك تتعاقب السور فيتمم بعضها بعضا فهذه السورة تمثل دعوة الانسان الى الهداية ونظرة الاسلام الى الحياة وتبين له طريقه وما يعترضه مما يعزز الايمان ويريه ثمرته في حياته وطمأنينتها وآخرته وجنتها، وفيها من هذه المعاني صورة من فلسفة الاسلام كاملة، ومثل هذه الاغراض الشاملة في سورة او بعض السورة تمر في القرآن في زمرة من السور بعد زمرة، كأنها شبيه باللازمة بين السور تردد معانيها ثابتة في مستقرها ترجع اليه بعد ايجاز وتفصيل من الاغراض والاحكام لتهز المشاعر وتدل على الطريق المستقيم وتوضح معالم النظرات الشاملة. ومن بعد التغابن سورة الطلاق .

الطلاق: سورة مخصصة القول في بعض ما أتت عليه السورة الآنفة من ذكر والمصائب والافتتان بالازواج والاولاد مستهلة بخطاب المؤمنين بتبيان حكم الطلاق وما يلازمه من نفقة حتى الآية السابعة مبينة ان ذلك من حدود الله «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم

نفسه ،ونظراً لصبغة الزواج الاجتماعية التي اريدت من معنى حدود الله]فانه ماانتهى من هذا الحكم الخاص الا انتقل الى مافيه التحذير من فساد المجتمع عامة بصورة مجملة قائلا«وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذابا نكراً»داعيا الى تقوى الله واتباع مايأتي به الرسول مما يتلوه من «آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور»فضلا عن ثوابهم في آخرتهم،وختم السورة بان هذا من امر الله باحكامه، وانه هو الخالق القدير الذي اوجب الشريعة باحكامها وجعل الثواب والعقاب من بعدها ،قد «احاط بكل شيء علما »بتربيته له على ماهو عليه وما هو صائر اليه ومن ذلك مايتصل بالانسان الذي اقتضى أن ينزل عليه الوحي وتقام له حدود فيثاب ان احسن ويعاقب ان اساء ،فهي سورة تمثل من نظرة الشريعة مايتصل بالاسرة والمجتمع وحياة المسلم بينهما حياة يعرف فيها الحدود والهداية صلاحا لنفسه في اسرته ومجتمعه الى احكام تدور بين ذلك حسب هذه الغاية . ومن بعدها سورة التحريم •

التحريم: وهي اخص من الاولى تتناول النبي الاعظم في شأن أسرته وماجرى له محاولا فيه مرضاة أزواجه مبيناً له ولأزواجه ماترتب على كل منهما ليكون في ذلك تمام إيمانهما منتهياً من هذا التخصيص إلى تعميم القول بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين ان «قوا انفسكم واهليكم

ناراً تنوهاً بأن من وراء هذه الحدود رضاء الله او غضبه ثوابه وعقابه، وانتقل من ذلك داعياً إلى الايمان والتوبة وجهاد الكافرين والمنافقين بغلظة إذ بلغ الرفق مداه «وماؤاهم جهنم وبئس المصير» فجمع بين الاسرة والمجتمع ومايصلح شأنهما من الايمان والحدود والمبادىء وختم السورة بما يناسب ماذكره في مطلعها من شؤون الاسرة وما انتهى إليه من جهاد أهل الكفر والنفاق بتخصيص حالة قد تكون فيها عقدة اجتماعية فضرب بها مثلاً لزوجة كافرة تكون تحت عبد مؤمن إذ ذكر إمرأتا نوح ولوط عليهما السلام فلم يغن زوجاهما عنهما من الله شيئاً «وقيل ادخلا النار مع الداخلين» وقابل ذكر ذلك بما يوضح الصورة فذكره زوجة مؤمنة تكون تحت كافر كامرأة فرعون «إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة [بديل بيتي الذى اعاشر فيه كافراً و كفرة] ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين وأمتد به القول الى المرأة المؤمنة الكاملة بايمانها بما يشبه الاستطراد تنويها بالذكرى مثلاً للمؤمنين لتكون بذلك عبرة، فذكر مريم بايمانها وعفتها وعبادتها وبذلك ختم السورة فهي سيرة الايمان في اسرته وصلته بالمجتمع وحدوده من التربية وفيها بين ذلك احكام تتناسب وماسيقت له توطئة او تقصياً بين تخصيص في القول تارة وتعميم من بعده أخرى لتكون العبرة اتم في الأنفس المؤمنة ومن بعد التحريم سورة الملك

الملك سورة ترجع بالبحث كرة جديدة الى أصول الايمان العامة مع اتصالها بما قبلها بمناسبتها المتسلسلة فهي تبتدي بذكر الله والثناء عليه تبين قدرته وما يدل عليه خلقه بدقة نظامه وتوضح غاية الحياة الانسانية ومصيرها وتتسلسل في هذا السياق معانيها ، فهي صورة من فلسفة الدين الاسلامي ونظراته العامة وتربيته العملية ومعتقداته الدينية وفهمها للحياة الدنيا والاخرة، هذا الى مجادلتها الكافرين وتحذيرها لهم بما تنذرهم به مبينة لهم مكانتهم من بين الكائنات في هذه الحياة ، وصلتهم وإياها بخالقهم جميعاً ، وتوضح معنى عنادهم له والصدود عما دعاهم اليه من الايمان به وعبادته ونتيجة ذلك بلغة تتحدث عن الطبيعة والانسان والخالق حديثا يطلق المجال للناظر واحساسه هذا مع مراعاة الانسجام ومناسبة القول بين المعاني المتسلسلة في الايات المتتابعة وكأنها بعد ذكر التفاصيل التي وردت في السور التي قبلها كلمة فصل تبتدي منها سلسلة تتتابع من بعدها السور لتجدد ايضاح ماورد فيها فتتم به بين مجمل القول ومفصله حلقة تدور فيها معاني الاغراض القرآنية ودعوتها الهادية مع تفصيل للاحكام بين ذلك بما يلائم المناسبة ويوافق سبب النزول، وفي سور القرآن حلقات حلقات يعم في بعضها القول ثم يتفرع عنه مايتفرع حتى لتتشابه سورة بسورة في أسلوبها ومعانيها في راس كل حلقة لتقارب الموضوع، وهي لو ضمت بنظرة لكانت

أشبه بمعالم القرآن في هدايته ودعوته الى معتقداته على النحو الذي استقل به في القول هذا التنزيل المحكم، وان سورة الملك بموضوعها ألصق بما اتسمت به «الملك» لله، تكشف للانسان عن مكانته في الحياة وغايته منها وصلته مع جملة الكائنات بخالقه لترده اليه يبتغي احسن العمل وخير العواقب فيكون بمكانته من نظام الطبيعة حتى «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»، تعرض له صوراً من الدنيا واخرى من الآخرة ليتزل نفسه بمكانتها ويعرف للخالق واجبه وهو الذي انعم واحيى وله المثوبة والعقاب.. «تبارك الذي بيده الملك» وبعد الملك سورة القلم ومن ملك حكم فقضى بالقلم وأبرم

القلم سورة : تصل خاتمة السورة السابقة باللاحقة اذ قال الرسول في تلك كما امره ربه «قل أرأيتم إن اهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب اليم» باحثاً بلغة الجدل عن صلته بربه مع صحبه ومصير الكافرين الذين يصدون عن دعوته فجاءت هذه السورة تتم القول في مكانة الرسول وما رماه المشركون به من قول وما عليه ان يسلك حيالهم باجتناب ما يرضيهم من مساوئهم لانه على «خلق عظيم» لا يليق به ان يطيع المكذبين المداهنين «وكل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين * اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين» (٩-١٤) وافاض في امرهم وشحهم بأنهم كجماعة ارادوا قطف ثمارهم خلسة

دون ان يستثنوا حق الفقير ، فاصابها الله بجائحة لم تبق لهم شيئاً فعرف اوسطهم واقربهم الى الخيرات ان كان هـذا جزاء ضلالهم وظلمهم وطغيانهم ثم قال تعالى : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون » وانتقل الى الصورة التي تقابـل ذلك بذكر المتقين ومصيرهم من النعيم قائلا : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » اتحسبون هذا من العدل؟ وجادلهم بذلك منتهيـا الى تبيان ضلالهم في شركهم وعدم الايمان بربهم وماينالهم فى الاخرة من ذلة لتجافيهم عن العبودية لله والتقرب منه في الحياة الدنيا منذراً متوعداً الكافرين داعيا الرسول الى الصبر، مبينا مايلقاه في سبيل تبليغ الرسالة من القرآن «وما هو الا ذكر للعالمين » فهي سورة تذكرة تبين واجب الرسول ومكانه من الدعوة وصدود المشركين واخلاق كل من الفريقين ومن بعد القلم سورة الحاقة

الحاقة : وهي يوم القيامة الذي يحق وقوعه وتعرف فيه حقائق الامور مستهلة بذكره ذاكرة هلاك الدنيا وبعض الامم الماضية ممن اهلكهم الله وانتقل الى مشهد الاخرة ومصيرها وما يلقى المتقون والكافرون اذ يقال للرجل منهم عند العذاب ، انه كان لايؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم [جزاء ذلك] هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون ، ثم بين ان

القرآن وحي من الله لم يكذب فيه رسوله قائلاً « وإنه لتذكرة للمتقين» ونحن نعلم « أن منكم مكذبين » رغم ذلك فيكون عليهم تكذيبهم هذا حسرة يوم القيامة «وإنه لحق اليقين» ماينذرون به وماجئتهم به يامحمد (ص) «فسبح باسم ربك العظيم» وبهذا اختتمت السورة فهي سورة العمل والايمان بين مشهديه فيمن مضى وماسيصير الناس اليه في الاخرة دعوة للحق وإحقاقاً له بما يوضح صلة العبد بربه صلة تسمو به الى التنزيه والاخذ بهدى القرآن من وحيه ومن بعدها سورة المعارج

المعارج مستهلة بما انتهت اليه السورة الآنفة من الحق اليقين بعذاب الكافرين الى ماذكرته من مشهد القيامة ومافيه، فكان الحديث في هذه السورة من بعده عن الانسان بخلقه الفطري وما يجب عليه وما ترمي اليه التربية الدينية قائلاً: «ان الانسان خلق هلوعاً *اذا مسه الشر جزوعاً *واذا مسه الخير منوعاً » (١٩-٢١) ثم استثنى المؤمنين الذين يؤدون حق الله والعباد بصلاتهم وزكاتهم الى مايتصل بذلك من كمالاتهم وادائهم أماناتهم، ثم توجه بالخطاب الى قوم الرسول قائلا لهم: «فما للذين كفروا قبلك مهطعين *عن اليمين وعن الشمال عزين «منددمين في اهواء متفرقة، فذكرهم محذرا من هلاك في الدنيا وعذاب في الاخرة فهي سورة تحريض للانسان ان يرقى الى ربه في مراتب العبادة فيكون الانسان الكامل الذي يظفر بخير الدنيا والاخرة

فلاتمسه الهلكة وله من الاخلاق ارفعها بديل الاخلاق المنحلة ومن بعد المعارج سورة نوح .

نوح: سورة عرضت لما كان من قوم نوح عليه السلام ومادعاهم اليه وما اهلكهم الله بسببه اذاصروا على كفرهم واستكبروا استكباراً وقد ذكرهم بالخالق وما يدل عليه من خلقه ،فلم يبق بهم امل حتي دعا عليهم نوح من يأسة قائلاً لربه :«انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً ،مختتما السورة بذلك وما دعا اليه مغفرة للمؤمنين والمؤمنات وما اراده للظالمين من تبار فهي انموذج للانسان الذي دعي للايمان في السورة الانفة ليعتبر بمن مضى ،فيها حديث عن قوم نوح حديثا عن تاريخ ايمان في امة لتكون العبره موثقة بحجتها التاريخيه ومن بعد نوح سورة الجن

الجن: فيها عرض لايمان طبقة منهم سمعوا للقرآن فوجدوه «قرآناً عجباً يهدي الى الرشد» من وحدانية الله والاخلاق الفاضلة فآمنوا به وذكر من ايمان الانس والجن ماذكره متخللاً ذلك ماينا سب سياق كل آية من حال كل من صد او آمن وانتقل بعد ذلك الى موقف من يعرض عن الدعوة وعقابه اتياً على بعض ماجاءت به الشريعة من عبادة الله الذى يرجع الامر اليه كأن تكون المساجد خالصة لعبادته مشيرا الى مالقيه الرسول الاعظم مبينا موقفه من الابلاغ

لهذه الرسالة التي رفع من شأنها تعالى بقوله «لا يظلع على غيبه احدا* الا من ارتضى من رسول» ومبينا مدى اهميتها والمراقبة عليها حتى «يسلكه من بين يديه ومن خلفه رصدا* ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم» واستدرك لما توهمه هذه الرقبة مبينا أنها مع ما اتصف به تعالى من احاطة وعلم، اقامة للحجة على عباده وتحريضا للرسله ليزدادوا من العناية وهو بعد بكل شيء محيط «احاط بما لديهم واحصى كل شيء عددا» فهي سورة تذكر طبقة من المؤمنين مقابل ماذكرته السورة الآنفة اتماما لمعاني ماقبلها، وتعلي من قدر الرسالة وآدابها لتحرض الرسول وقومه عليها ومن بعد الجن سورة المزمل

المزمل سورة اتت على ذكر ماختمت به السورة الانفة مما اطلع الله عليه رسوله من غيبه بوحيه بذكر شيء من قصته وما اوحي به الى الرسول في اولى مواقفه فغدا «المزمل» يقول لاهله: (زملوني زملوني)، هذا الى مادعا اليه من تدبر القرآن وترتيله وعبادة الله والاتكال عليه والصبر على مايقول الكافرون * واتبع ذلك بيان يهجرهم عند الصدود «هجراً جميلا» فعنده تعالى عقابهم بعد المحاسبة شأن فرعون فيما لقيه قائلا «ان هذه تذكرة* فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا» قبل ان يصير الى هذا الموقف الضنك مختتما السورة بما اتخذه الرسول سبيلا مثنيا عليه مع طائفة من صحبه في وفاء العبادة وايعازهم الى اقامة

فرائضه قائلا . وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » فهي سورة المؤمن الاول الرسول عليه السلام في اول مواقف رسالته وحظه من المجاهدة وصحبه في عبادة فيها الخير والأجر والعظة والعبر تتمم بمعانيها وموضوعها ماسرت به السور الثلاثة الآنفة في انسجامها وتسلسل الغرض ومن بعد المزمل سورة المدثر

المدثر وهو الرسول عليه السلام ايضاً سورة أتت على اتمام المشهد الذي ذكرته السورة الآنفة بابتداء الوحي مبينة ماأمر ان يكون عليه الرسول عليه السلام من نقاء وطهارة في إبلاغه الرسالة ذاكراً الآخرة وما يلقاه الكافرون من المستكبرين في الارض كالوليد بن المغيرة ممن اوتي المال والبنين « ثم يطمع ان أزيد » وذكر من قوله في القرآن والرسول بانه بعد ان فكر فيه وسمع منه «حم السجدة» على ماروي قال «إن هذا الاسحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر » فادبر عن الحق واستكبر عن اتباع الرسول عليه السلام بعد مابدرت منه بادرة عقل وخير بين أقرانه بثنائه بوصف القرآن وصفا ينفي ماقاله غيره من انه قول مجنون او كاهن اوشاعر ، ثم ذكر ماسيصير اليه من عذاب لعناده هذا على ماأوتيه من علم ونظر وسيادة ومال وبنين، وذكر من شهد القيامة ماذكر معه من اخلاق الكافرين

مايستحقون به العقوبة زجرالهم وتذكرة واختتم السورة بقوله : « كلا انه [أي القرآن] تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون الا أن يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة » فهي سورة تمثل ايضاً موقف الرسول عليه السلام مما كان عليه في دعوته وما لقيه من صدود ويختص بالذكر حالا من احوال بعض القوم مما فيه تحريض على الايمان عظة ومن بعد المدثر سورة القيامة .

القيامة: سورة تؤكد البعث بعد القسم بيومه الحق وندامة الانسان فيه قائلا «أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه؟ * بلى قادرين على ان نسوي بنانه» وهو اصغر جزء ظاهر في الانسان ولعل في تخصيصه لما امتازت به السلامات مما كان خافيا على الناس علمه يومئذ وعرف في زمننا الحاضر بان لكل امرئ في سلاماته تكوينا بخطوطها يتميز به حتى لاتجد لها في الناس مثيلا ابداً ، لعل في ذلك ماتتضح به روعة هذه الآية فيما ذكرته ، كما ان في ذلك وجها من وجوه الاعجاز في القرآن بانطباقه على الحقائق العلمية تأتي بعد قرون ترد على لسان رجل امي في صحراء يقول هذا ماأوحي به الي فلا سبيل الى ان اعلمه من نفسي فيكون علمي غير لدني من عند الله كما يتوهم بعض المعاصرين ولا سيما من الغربيين ومقلديهم ممن وقفوا على سيرة الرسول الاعظم فعرفوا لها روعتها ومافيها من حق وعز عليهم رغم ذلك الايمان استكبارا وتقليدا

لأنهم او من غفلة المبادئ والنظرات المادية حتى عزوا ما اتى به رسول الله الى عبقرية نابهة وما كان لها ان تأتي بمثل هذا الامر وهو متوقف على دراسة لا الى تأمل وعبقرية وكم في القرآن من مثل هذه الايات ما تدفع به تلك الشبهة ثم ذكر من مشهد البعث ماذكره وانه «ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر» بكتابه الذي يعطاه مذكورا فيه جمع اعماله في دنياه فيعجل في قراءته فيقال له «لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه [جمعناه لهذا اليوم وفي هذا اليوم نقرأه عليه محاسبين فلا تعجل به] فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه» (١٦-١٩) في هذه المحاسبة بما تستحق بنتيجته واتبع ذلك بما يناسب المقام مبينا ان هذه العجلة من طبيعة كان منها ان الناس «يحبون العاجلة * ويذرون الاخرة» وذكر من شأنها ماذكر مختتما السورة بعد هذا بقوله: «أيحسب الانسان ان يترك سدى * الم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى» فكان دليلا بينا على البعث وقدرة الله عليه وأنه مرحلة طبيعية بعد تلك المراحل التي مر الانسان بها، وقيل فيما ذكرناه من الآيات الآنفة (١٦-١٩) بأنها خطاب الرسول بجمل معترضة استدرك به القول تعليما له عند الوحي اذ كان يتعجل تلاوة ما يوحى به اليه فقيل له في ذلك ماقيل، ثم رجع القول الى سياقه بعد ما مرت هذه الايات معترضة

لمناسبتها العارضة من حال تلقي الرسول للوحي عليه تثبيتا لحالة الوحي وتصويرا لاوضاعه، فمناسبة هذه الايات تكون بهذا الاعتبار بدلالة حالته عليه السلام آنئذ، وكم من الايات ماتعرف مناسباتها بسبب وحيها؟ والظاهر ان التفسير الاول اظهر علاقة بمناسبات الايات ووحدة غرضها فلا تكون كالجملة العارضة، وان كانت الجمل المعترضة من اساليب العربية، تنسجم فيها المناسبة وتحلو الاشارة، وهكذا فان هذه الصورة مرت بموقف من القيامة وبعثها وحسابها بما يطابق اسمها تمام الطابقة. ومن بعد القيامة سورة الدهر.

الدهر: سورة مستهلة بخطاب الانسان بقوله تعالى: «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا؟» فكانت الصلة بهذا وثقى مع ما اختتمت به السورة الآنفة فيما ذكره تعالى من مراحل تكوين الانسان مبينا بعد ذلك ما امتاز به الانسان في خلقه «سميعا بصيرا» مدركا ليبتلى باختباره فيجزى بعمله بعد ان اوضحنا له سبيل الهداية «انا هديناه السبيل [فهو تراه] إما شاكرا وإما كفورا» وذكر مايتصل بهتين الحالتين من ثوابه وعقابه وفصل القول ترغيبا بنعيم الجنات ووصف ماعد فيها تعالى للمتقين باسبابه من ايمان وخلق وعمل واتبع ذلك قائلا: «ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا»

واوضح أن السبيل للهداية بما انزل به تعالى القرآن تنزيلا وخاطب الرسول بالصبر عليه في تبليغه مذكرا بما يجب عليه من تقرب الى الله وختم السورة بما يصور الذين يجفون دعوته بانهم «يحبون العاجلة» بخيراتها «ويذرون الاخرة» بوجائبها وانه لو شاء تعالى (تبيانا لمدى قدرته وتحريضا لعباده) لبدل امثالهم بافنائهم وخلق غيرهم قائلا «ان هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا [بالاقبال عليه بما فيه صلاح الدنيا وجنة الاخرة] وما تشاؤون الا ان يشاء الله «بانباع امره كما امر، لا كما تزينون لانفسكم مغترين باهوائكم وسلطانكم، فان مشيئتكم من فضله تعالى، وسلطانكم دون سلطانه؛ فسبيل الهداية لكم بما امر، تأخذون بوحيه وتنزيله، وقد ذكركم بقرآنه واوضح لكم سبيل الاستقامة في الدنيا والنجاة في الاخرة «ان الله كان عليما حكيما»، عليما بما فيه صلاحكم وما امركم وما تفعلون، حكيما في عدله وحسابه فضلا عما سلف من مشيئته وقد اوجب العدل وكتب على نفسه الرحمة، فهو لذلك «يدخل من يشاء في رحمته، [والحكمة صفته] والظالمين اعدلهم عذابا أليما»، ومن الحكمة ان يقيم فيهم عدله بعذابهم جزاء وفاقا لما فرط منهم اذ جاءهم الذكر فافسدوا العمل بسوء تصرفهم وفساد مشيئتهم: وهذه السورة بموضوعها تتناول الانسان في وجوده ومشيئته وعمله وحسابه وتذكرته، وموقف الانسان الاكمل صلى الله عليه وسلم من اداء هذه التذكرة؛ ومن بعد الدهر

سورة المرسلات

المرسلات سورة مستهلة بقسم انتهى منه الى ما في التذكرة التي ختم بها السورة الآنفة «عذراً او نذراً» والوعد واقع في مصير الاخرة وقد كان الاستهلال بقسم رائع من خلق الله وتصريفه له بذكر طبقات من الملائكة تدل بصفاتها واعمالها على جليل حكمته وسلطانه حتى تتفتح الانفس للعظة ، ومر من ذلك الى مشهد من الآخرة ويوم الفصل في اعمال العباد التي ذكرها في السورة الانفة ، ورجع بالتفاتة الى الماضين يوضح معنى الهلاك لينبه الانسان الى مكانه ممن سبق وختم ذلك زاجراً متوعداً «قائلا» ويل يومئذ للمكذبين » ثم مر بالانسان في طور تكوينه ومراحله ليعرف قدر نفسه وحدوده ومكانته من خالقه وردد اللازمة الآنفة «ويل يومئذ للمكذبين » ثم نبه الانسان الى مصيره في آخرته بعد تكذيبه للرسل وعذابه الشديد بما يبين ضعف الانسان الى جانب سلطان خالقه قائلا « فان كان لكم كيد فكيدون» ومر من ذلك مرغبا بمصير المتقين وحسن جزائهم ، وعطف أخرى على المكذبين ووصفهم بتكذيبهم لرسلهم واجرامهم وعدم عبادتهم لربهم وختم السورة بانهم ان لم يؤمنوا بهذا القرآن الذي انزل إليهم تذكرة « فبأي حديث بعده يؤمنون » ففي مستهل هذه السورة قسمها وفي اللازمة التي اتت عليها مشابهة بما سبق التنبيه اليه من سورتين

في معنى تلك الحلقات من معالم القرآن في تتابع السور والانتقال من معنى الى آخر من مقاصد القرآن الاولي في مثل ماذكرناه في سورة «الملك» ، وهي تجري بحسبها من الاساليب بين خطابية زاجرة كهذه ، أو بيانية هادئة او مفصلة أحكاماً الى آخر ماهنالك من اساليب القرآن تعليما وتذكرة هدى للعالمين حتي يكونوا مؤمنين على اكمل حال في دنياهم آمنين يوم القيامة في جنات النعيم ومن بعد المرسلات سورة النبأ

النبأ: سورة تتساءل عن البعث الذى كان ينكره فريق كبير من العرب ويتساءلون مستهزئين: احقا انهم يبعثون وآباءهم فاكد لهم ذلك بدلالة القدرة التي تدل عليها آيات الله في خلقه في هذه الحياة بدقة نظامها قائلا بعد ذلك: «ان يوم الفصل كان ميقاتا» (١٧) ووصفه بما فيه ووصف الجنة واهلها والنار وعقابها مختتما السورة بقوله «ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا * إنا انذرناكم عذابا قريبا * يوم ينظر المرء ماقدمت يداه، ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا» فسورة النباء تنبيء عن الاخرة وتبرهن عليها بايات الله التي خلقها في هذه الحياة وتعطي صورة عن مواقفها ومصير المنكرين لها من الندامة ومن بعد النباء سورة النازعات.

النازعات: سورة مستهلة بقسم عظيم في الملائكة وما لها من صلة بالانسان في موته بقبض النازعات روحه وفي الحياة بما

تدبر من امر الله وفق نظامه وما تقيم من مقتضى حكمته وما قدره وانتقل من ذلك الى مايتصل بالموت وحياة الانسان وهو البعث مبينا انه حق يسير امره مادامت فيه الكلمة لله ، وهكذا اتبع ذكر الاخرة في السورة الانفة بما يتصل بها ، ووقف عند البعث وقفة تشعر الانسان بعظة معتبرة إذ أتى على ذكر موسى عليه السلام وقصته مع فرعون اذ قال فرعون بعد ان اراه موسى الاية الكبرى «انا ربكم الاعلى» مستكبراً «فاخذه الله نكال الآخرة والاولى» قائلا «ان في ذلك لعبرة لمن يخشى» ربه وحسابه فلا يستكبر كما فعل فرعون فاهلكه الله بسلطانه الذى يفوق كل سلطان ثم خاطب بعد هذا التذكير جماعة المنكرين للبعث من العرب بقوله : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها» والارض بعد ذلك دحاها» وذكر من آياتهما ماذكره واختتم ذلك بقوله «فاذا جاءت الطامة الكبرى » و كان يوم النشور فحينئذ «يتذكر الانسان ماسعى» فيثاب بجحيم اوجنة واتبع هذا بما سئل الرسول عنه من يوم البعث قائلا بان الساعة علمها عند الله «الى ربك منتهاها * انما انت تنذر من يخشاها» [وهي قريبة منهم لامن حيث الزمن ولكن من حيث شعور الانسان بها اذ يقضي حياة برزخية تنطوي بعد حياة قصيرة على الارض يكون

النشور على أثرها حتما« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها» فهي سورة اتت مع ذكر الاخرة ببرهانها وعرض شيء من دلائلها بقصة من حياة الايمان والكفر فيها عبرة مبينة مايكون في الاخرة من محاسبة فزادت عن السورة السابقة في اتجاهها الى الانسان بعمله حين تتحدث عن القيامة، فالنظر اليها كان من خلال هذه النظرة وكان في تلك الحديث اقرب الى دعم نباء الاخرة وهكذا تجد (مع اتحاد الغرض) الفارق الذي تعددت السور من اجله على قرب المعاني ووحدة القصد من ذلك جميعا في غرض واحد من هداية الانسان دعوة الايمان

ومن بعد المرسلات سورة عبس

عبس : سورة مستهلة بحديث رجل ممن اختتمت السورة السابقة بذكرهم ممن يخشى الاخرة التي يحذر الرسول من اهوالها، وهو رجل اعمى اسمه (ابن ام مكتوم) جاء الى الرسول عليه السلام قائلا له: (علمني مما علمك الله) وكان الرسول مقبلا على صناديد قريش يدعوهم فكره الرسول ذلك منه، فعاتبه الله تعالى مبينا له ان كان عليه ان يقبل على من اقبل عليه اذ جاءه وهو يخشى ، اما من تجافى عن الدعوة فما عليك يا محمد ان تتصدى له« وما عليك ألا يزكى» واشفع هذا العتاب الذي أريد تعليما له ولمن يحمل الدعوة من بعده تذكرة فحسب، تبيانا لما اقتضته حكمة الله في وحيه وحسابه للناس بعد الاعذار بارسال

الرسل اليهم ، ثم اتبع ذلك بالتعريض بمن صد عن دعوة الله بذكر الانسان وغروره في كفره وصده عن ربه قائلا : « قتل الانسان ما اكفره » وذكر من ضعفه انه في قبضة يد ربه فى حياته وموته وبعثه وما اعد له في الدنيا وما هو صائر اليه في الاخرة واختتم السورة بذكر (المتقين) في وجوه يوم القيام « مسفرة ضاحكة مستبشرة» و (الكافرين) في وجوه «عليها غبرة * ترهقها قترة * اولئك هم الكفرة الفجرة » ، فهي سورة ذكرت الرسول عليه السلام خاصة بحادث اوردته وانتقلت الى اعم منه وهو الانسان بتذكيره ، واتجهت من ذلك الى بعثه وحسابه على اعمال دنياه ، وفي التذكرة ايقاظ لحسه ومشاهد تأملاته وعناية الله به ونظام خلقه وما اعد له من رزق في طعامه وزراعته ، وبينت مصير الانسان في آخرته بين وجهين مسفر ضاحك ، ومغبر قاتم ، فهي سورة تذكرة . ومن بعد عبس سورة التكوير .

التكوير : سورة تمت مشاهد التذكرة بحديث القيامة باسبابها وما يكون فيها وممهداً لها ، فذكرت من آيتها الاولى اولى آيات الاخرة « اذا الشمس كورت » فاضطرب نظام الافلاك واقترب الوعد الحق وانتقل من هذه الروعة بزوال الدنيا الى اعمال الناس والحساب عليها فخص من ذلك مساوىء الظلم «واذا الموؤدة سئلت »

ومحاسبة الانسان على عمله « علمت نفس ما أحضرت» ورجع كرة اخرى الى القسم بروائع الطبيعة لينتهي الى دعم الرسالة المحمدية بصدقها مبينا ان القرآن الذي جاءت به « ذكر للعالمين » فليس قول مجنون ولا شيطان رجيم « ان هو الا ذكر للعالمين » ينبههم الى ما فيه خيرهم « لمن شاء منكم ان يستقيم * وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين » فهدايتكم بما يهديكم اليه لا بما تزعمون لانفسكم وانتم تتبعون اهواءكم فمشيئتكم بان تخضعوا لمشيئة الله وتتبعوا ما امر به من الاستقامة ، فهي سورة تذكرة تهز الافئدة ومن بعد التكوير سورة الانفطار.

الانفطار : كالسورة السابقة استهلت بقسم وروعة تذكر الانسان بمصيره وتدعوه الى الاستقامة التي انتهت اليها السورة الآنفة باسلوب يستلين للهداية قلبه بقوله تعالى : «يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في اي صورة ما شاء ركبك» فلم يكن لك حول ولا طول بذلك وانت لا تملك نفسك وانما وهبت لك قدرة اسأت التصرف بها مغرورا تحسبها ملكا لك ، مبينا ان مبعث هذا الغرور تكذيب بيوم الدين ومحاسبتهم فيه ، وهو يوم بين شأنه ختم به السورة بقوله « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والامر يومئذ لله » فوصفه بما يلائم ما خاطبت به الآيات الانفات الانسان في خلقه وقدرته ونسبته في ذلك الى ربه

فهي سورة تتمم السور الانفة بتذكرة الخوف والخشيه باسلوب كاسلوبها يستلين الافئدة، وكذلك شأن الموضوعات العامة في السور المكية غالبا تجري على خطة من هذا البيان الرائع ومن بعد الانفطار سورة المطففين.

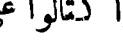
المطففين: «الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون * واذا كالوهم اووزنوهم يخسرون» فلا يوفون الحق لغيرهم ويتزيدون عند استيفاء الحق لانفسهم، اعتداء واثرة، وهذا من امهات المفاسد التي تنم عن اغترار الانسان الذي اوجزت القول فيه السورة الانفة وظلم فيما رزق الله (مما اشارت اليه من قبلها سورة عبس) هذا الى تخويف وتحذير بالويل والثبور من يوم النشور الذي يكذبون به وبحسابه وقد كانت الغفلة عنه بسبب من اعتداء الناس بعضهم على بعض «كلا! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» وهذا مدعاة حجابهم عن رحمة الله حتى يصيروا الى جهنم وكانما وقف بهم موقفهم منها اذ يقال «هذا الذي كنتم به تكذبون» واتبع ذكرهم بذكر المؤمنين الابرار مع شيء من النظر والمقابلة ترغيبا بمصيرهم مختتما السورة بقوله «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الارائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون» فهو يوم ادني من افئدتهم بتصويره لهم كانما حان موعده وتم المشهد بالتحدث عنه فجاءت «ثوب» بصيغة الماضي كان

المقبل حضراً واوشك فهذه السورة سورة الانسان بعمله وحسابه عليه ومن بعد المطففين سورة الانشقاق

الانشقاق سورة مستهلة بذكر الآخرة كالسور الآنفة مرددة القول في عمل الانسان على الجملة بتذكير هادىء بعد ذاك الويل في « المطففين » وما ورد في « الانفطار » و« عبس » اذ قيل فيها قتل الانسان ما أكفره » مما فيه صورة لتتابع القول على وجوه واساليب في غاية واحدة تراعي احوال القول ومناسباته ومكاناتها من النفوس فقد جاء في هذه السورة بعد ذلك كله قوله تعالى: «يا ايها الانسان انك كادح [بما يقدر للانسان جهده في حياته بعطف وتحبب ورحمة وشفقة] الى ربك كدحا فملاقيه » فاحذر بعد هذا الجهد سوء المصير بأن تؤتى كتابك وراء ظهرك فتدفع الى العذاب بدل ان تنقلب مسروراً الى أهلك، ثم اشفع ذلك مبيناً علة عدم الاخذ بهذه النصيحة إذ «ظن [الانسان] ان لن يحور» فلا يبعث فاكد لهم ذلك بقسم بما فيه الدلالة على القدرة على البعث وكر مستنكراً عدم الايمان بعد هذا البرهان والقسم قائلا « فالهم لا يؤمنون » بالقرآن كأنه يستفسر عن سبب صدودهم لينبه الانظار الى العلة التي ذكرها مستدركاً القول فيها بقوله « بل الذين كفروا يكذبون» تكذيبا لا برهان له سيراً مع أهوائهم فبشرهم بعذاب « اليم » لان الله « اعلم بما يوعون » من اعمال سيحاسبهم عليها

مستثنياً من العذاب «الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم
غير ممنون» في جنات عدن . فهذه السورة كالسور
«التكوير» و«الانفطار» من حيث روعة الاستهلال وتبيان
الى ربه وحسابه على عمله ومن بعد الانشقاق سورة البر

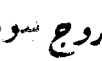

البروج سورة مستهلة كالسور السابقات بد
ثم تحدثت عمن يحول دون إيمان المؤمنين فيفتنهم ويع
طاغيا باصحاب الاخدود إذ حفر لهم خنادق أحرقهم
سيحاسبهم الله بعملهم وهو شهيد عليهم، «ان الذين
والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب ا
ذكر هؤلاء بما يناله المؤمنون الذين عملوا الصالحا
ان المصير لله» إنه هو يبدئ ويعيد» خلق الخلق ابتدا
اليه في الآخرة فهو « فعال لما يريد » كما اهلك الما
يهلك من شاء في الدنيا والآخرة وقد المع لذلك بفرعو
يكذب بهذا الكافرون فان الله «من ورائهم محيط» ل
سلطانه وقبضة يده، وهذا ماينذرهم به في قرآن مجيد « في
فيه الكلمة الالهية التي لاتبديل لها ولا بد من نفاذها ففي
ذكر لمن يصد عن الايمان ويحول دونه بعد ان ذكر
الآنفة من لايؤمن مكذبا بالآخرة ومن بعد البروج س

طارق : وكأنها تستهل قولا جديداً تؤيده بالقسم في هذه
موظة بان الانسان بعمله محفوظ مثل ذلك «إن كل
حافظ» وانه سيبعث ويحاسب والدليل على يسر ذلك ان ينظر
ن قدر ذلك واتبع في خلق الانسان هذه الاطوار
عليها فانه «على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر »
له من قوة ولا ناصر» ان كفروا أساء العمل في حياته ثم
الكافرين سيلقون مثل كيدهم بجزائهم وليس بعيداً
يروا ذلك، فهي سورة لا تتناول البعث والحساب تؤيد
رة الآنفة بمنطق هادئ يثير التأمل والانتباه ثم يملك
حين بين للانسان مدى قوته وحقيقة ضعفه ومصيره
بعد الطارق سورة الأعلى

الاعلى : سورة مستهلة بما استوجبه استدراك القول فيما
سورة الآنفة بقوله تعالى عن كفران الكافرين « إنهم
يداً» وعن حسابهم عليه مما غفلوا عنه رغم انذارهم به « واكيد
ان قال في أول آية من هذه السورة « سبح اسم ربك
تبعها بان الكيد للانسان في عقابه انما هو لاقامة العدالة فقط
مالى خلق الانسان فسواه وقدر الامور وهداه الى خيرها
، ولكن من الفطرة ان يزكو المرء ثم يتدنى
أحوى كالانسان فانه بعد نمائه وتمتعه بموهبة العقل والنظر

ونعمة القدرة والارادة يصد عن الهدى ويجفوه فيتدنى حاله ويسوء مآله ويجزى معاقباً بعمله الى هذا المصير بعد ازدهار حياته وهو الكيد الذي يلقاه من غفلته واغتراره واستكباره مما اتت السور الانفات على ذكره معللة كقرانه، وهكذا مرت السورة بالتسبيح في استهلالها الى دوحة تكشف عن معاني للخلق فيها دلالة على الخالق وهدايته الى التفاتة بخطاب الرسول فيما أوحى الله به اليه، وتعهد بحفظ الوحي بما فيه العصمة حتى يبلغ الرسالة غير محرفة وذلك من فضل الله وتنزيهه سبحانه وهو «يعلم الجهر وما يخفي» فربط بذلك بين التعليم وتثبيت الوحي وبين اوامره والحساب عليها ثم أتم الخطاب للرسول مبيناً ماهداه اليه مما يوجب تسبيحه تعالى وهو يلائم الكمال في خلقه من وحي القرآن المنزل عليه قائلا: «ونيسرك لليسرى» ولعل هذا ادق ماتوصف به الهداية الالهية للخلق وما يوصف القرآن به وقد اريد لخير الناس ويسرهم واحسان عملهم وحسن مصيرهم، وهذا مايجب ان تذكر به في رسالتك التي تبلغها يامحمد «فذكر ان نفعت الذكرى» حسب مقتضى المقام واحواله ومن تلقاهم، فذكر ماوجدت في التذكير فائدة ترجى، وان للتذكير حقا فائدة، فانه «سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى» وبين السبب في ذلك بعد تبيان الجزاء بقوله: «بل تؤثرون الحياة الدنيا * [رغم أنه] والآخرة خير وابقى»

كما اوحينا ذلك في «صحف ابراهيم وموسى» فهذه الحقائق الدينية ثابتة في شرائع الله وقد اوحى بها من قبل في «صحف ابراهيم وموسى» ليأخذ العالم بها ولاسيما العرب منهم وهم الامة الأمية فيكونوا آخذين بعلم اهل الكتاب الذين كانوا يرون لهم عليهم فضل العلم، وبذلك كانت المناسبة دقيقة بين المطلع «سنقرؤك [يامحمد وانت الامي في البلد الامي فلا تنسى، وتتعلم وقومك ما كان يعلمه اهل الكتاب في «صحف ابراهيم وموسى» بما في ذلك من هداية ذكر بها وادع اليها وانت تعرف نعمة الله وحسن خلقه ودقة نظامه فهي بخطابها دعوة للرسول ومنة بما يعرف العرب من الهداية فضله، ومن بعد الأعلى سورة الغاشية

الغاشية هو مايكون من حال الناس يوم القيامة «وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية» و «وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية» بين نعيم خالد وعذاب مقيم اليم، وفي هذا المشهد الاول من هذه السورة وهي ثلاث مشاهد، حتى اذا انتهى من ذلك في وصف الآخرة التفت -(وكانه فجأة)- مبيناً مافيه زجر عن الغفلة عن آيات الله التي توجب الايمان بالله ماثلة في هذه السماوات والارض وفي هذا المشهد الثاني- مشهد التأمل)- الذي اريد للنظر بمعرفة الحقائق وإدراك الخالق والمصير اليه لتحسن بذلك عاقبة الانسان فيكون مع اهل الجنان ممن تحدث

هد الاول بديل اهل الجحيم ممن نفر من حالهم وصورهم بعذابهم
آء، ولذلك انتقل الى المشهد الثالث الاخير قائلا للرسول
فذكر بمثل هذا التنبيه والمصير «إنما أنت مذكر» وحسبك
ون ان تكره الناس على الاسلام فانت «لست عليهم بمسيطر»
لا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الاكبر»، وهذا
ل بالاهلاك في الدنيا بمثل حربهم والجهاد فيهم واستئصال
او بامهالهم حتى يكون الحساب وحينئذ تغشاهم غاشية من عذاب
ما ذكر في مطلع هذه السورة، وختم ذلك قائلا: «إن الينا
* ثم ان علينا حسابهم» فهي سورة تذكرة للانسان وحسابه
يه من الايات الطبيعية والرسالة المنزلة لتحسن خاتمة بالاياب
ليكون من اهل النعيم ومن بعد الغاشية سورة الفجر.

الفجر: سورة استهلها بقسم انتهى منه الى ذكر من اهلكهم
ممن «طغوا في البلاد * فاكثروا فيها الفساد * فصب عليهم
سوط عذاب» قائلا بعد هذا: «ان ربك
اد» يجزي كلا بعمله، واتبع هذا بما يكون من الانسان بطمعه
لمال وما يصده عن الهدى من خير زائل يحاسب عليه ومن دونه
«يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى» أن تأتيه حينئذ
قد فات وقت العمل في الحياة الدنيا حتى «يقول يا ليتني قدمت

لحياتي، هذه الحياة الخالدة في الآخرة فيعذب اشد العذاب بينما يقال ل
لعمله الصالح منذ الوفاة «يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي الى ربك
مرضية * فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . فهي سورة تذكرة ا
بروعة القسم وعرضت صوراً من احوال الماضين ملمعة الى اسباب ه
ثم ارتفعت درجة الى تعميم القول في طبيعة الانسان واحواله
والخلقية على ضوء رزقه وحرمانه لتذكره من ذلك بواجبه، ثم ارتق
درجة ثانية الى مشهد من الآخرة، توضيحا لمصير الانسان فيعمل
الخالدة مايطمئن به بمرضاة ربه ، فكانها سورة تذكرة ترجع
الى فجر من الحياة ليكون له من بعدها الحياة الخالدة المطمئنة
بعد الفجر سورة البلد .

البلد : سورة مستهلة بالقسم به وهو البلد الحرام بان ا
في مشقة وجهد في دنياه وما سيلقاه في أخراه ومع ذلك فهو
بنفسه وماله كأنما «يحسب ان لن يقدر عليه احد» ولا يراه في عمل
مع اننا نحن الذين خلقناه ولم يخلق نفسه وهدياه الطريق، وبينا ل
من الشر، «ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين »و
لم يقابل ذلك بما يستحق من الشكر فيقتحم من نفسه عقبتها
العباد وانقاذهم من الرق واطعام الفقراء في ايام شدتهم وصلة ا
من ذوي القربى او من الفقراء الذين لا يملكون شيئا، هذ

ان يتحلى بالايمان واخلاقه بالصبر والمرحمة مما يجعلهم اهل الميمنة يستحقون الجنة بينما الذين كفروا بذلك من آياتنا فاولئك هم : «اصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة» ففي هذه السورة كالسابقة روعة الاستهلال بقسمه حتى تتفتح ابواب النفس الموصدة فتذكر من الانفاق والبذل ماوجب بعد ماسلف بالسورة السابقة ذكر قيمة المال في نفس الانسان وتنبيه الى حالته من الاغترار والجهالة لترده الى خالقه الذي هداه فيتخلق باكرم الاخلاق، فهي بعد التذكير بالسورة الآنفة سورة ايمان وبذل ورجولة تقتحم العقبة ومن بعد البلد سورة الشمس .

الشمس : سورة مستهلة بقسم تتابعت آياته منتهية الى قوله في الانسان بعد ذكر ماذكره من خلقه في الكائنات «ونفس وماسواها» فكان بذلك ادق مدخل لماسيقت اليه هذه السورة في ايضاح هذا المعنى الذي مرت به السورة الآنفة بقوله تعالى عن الانسان « وهديناه النجدين » فقال بشأن النفس « فألهمها فجورها وتقواها» وذكر الخالين بقوله « قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها» واتبع ذلك عجلا جريا مع هذا الاسلوب الخطابي الموجز بمثل لمن دساها فخاب وهلك بذنبه هلاكا لايكترث الله بعقبته دلالة على ان السلطان له وحده اذ قال «فدمدم عليهم [اي على قوم ثمود الذين ذكرهم بالهلاك] ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها» فهي بعد التذكير سورة انذار تخاطب الانسان

بما يخشى منقبته من الهلكة ومن بعد الشمس سورة الليل .

الليل : سورة استهلت كالسورة السابقة بالقسم بروائع المخلوقات ومظاهر الآيات لتهز قلوب بني الانسان بالعظة قائلة : « ان سعيكم لشتّى » مبينة مافيه النجاء بالتقوى والايمان والبذل وان الانسان في ذلك ميسر لليسرى التي فيها نجاؤه وراحته وسعادته ، وذكرت مقابل ذلك ماثم من عقاب اشفعه على لسان الرسول بانذار اذ يدعو الى مافيه السعادة ، وختمت القول بالبذل ابتغاء وجه الله ذاكرة بان المرء يجزى بما يحقق رضاءه « ولسوف يرضى » فهي سورة من بعد السور الآتيات توجز مراميها من ايمان وهداية وبذل واتباع لما انذر به الرسول الاعظم ، وهي مثلها خطابية باسلوبها وكذلك معظم السور المكية اذ كانت تتجه الى التذكرة العامة وتدعم اصول الايمان بنظرات التأمل وآيات تدل على آيات الله او تبعث من اخبار الماضين صور العبر فمعظمها لذلك بين تاريخي وخلقي وفلسفي ومن بعد الليل سورة الضحى .

الضحى : سورة استهلت بقسم بمظاهر الطبيعة الرائعة كالسور الآنفة ، والقسم فيها متسلسل في زمرة تربك من اسماء السور زمراً ، والقسم فيها توطئة كانه الاطار الفني الذي يفتح البصيرة على مشهد يملك الانفس روعته لتستجيب للدعوة الهادية ، والمناسبة في

ذلك وثقى بين القسم وبين الغرض الذي تأتي عليه السورة، وهذ
في سورة الضحى ترى النور باشراقه والحياة بوضوحها والحقائق
بجلائها فتمر من ذلك الى حالة الرسول الاعظم من الوحي اذ
جاءه وتكشف عن بهاء الضحاء في سبب النزول
اذ انقطع الوحي في بداءته عن الرسول عليه السلام ليتمكن منا
ويتشوق اليه، فقال العداة المنكرون لرسالته، (جفاه ربه) فجاءت هذه
السورة من ذاك الضحاء ترد الفرية وقابلت الضحاء بالليل اذا سجى، في
هدوء خاشع بالاية الثانية، فاذا الليل باجمل مافيه والنهار بأروع صفائه
يدور بمعنى الزمن دورة الوحي وانقطاعه ليتجه الى الرسول عليه السلام
بما ينير قلبه ويطمئن خاطره وقد اقلقه شوقه وقول العداة الجفاة، جاءت هذه
السورة خطابا انعم الله به عليه لتكون النفس مطمئنة (وقد كان والفجر
حديث النفس المطمئنة) بعد ماسبقت السور الانفة في خطابها لقومه ومعاديه
منذرة محذرة، وقد دعت الرسول عليه السلام الى حسن المعاملة والانفاق
ليستمر على نهجه بكمالاته التي امتن الله بها عليه فأثابه بان آواه في بيته،
واغناه بعد فقره، وهداه الى شريعته، فكانت هذه السورة متممة
ماينا سب سياق السور الانفة خطابا للرسول بعد خطاب قومه، ولكن
بلغة غير لغة الانذار، بما يحرض الهمم ويناسب مافيه المثوبة وابتغاء وجه الله
من منن فيها الرضاء والارضاء مما اختتمت به السورة الانفة وذلك بذكر

امتنان ينطوي على وعد بمثله وزيادة يتصل بما استدعى نزول هذه السورة بسببها من انقطاع الوحي حتى سرى عنه ربه بقوله : « ماودعك ربك وما قلى » ؛ وربما كان نزول هذا في الفترة الذي سئل بها الرسول عن الروح وما الى ذلك مما أتت عليه «سورة الكهف» ؛ وفي هذه السورة ما يكشف عن منزله الربوبية ومكانة الرسول البشرية منها في نعمة ومنة ودعوة وتوجيه وهداية ومن بعد الضحى سورة الانشراح

الانشراح : سورة موجهة للرسول أيضاً فيها امتنان ووعد باليسر من بعد العسر ودعوة له ان يظل مجتهداً في عبادته لربه رغبة به ومن بعد الانشراح سورة التين

التين : سورة استهلت بقسم بالتين والزيتون والقسم في القرآن فيه تنبيه وتنويه بعظمة الله خالق هذا الذي يقسم به الى جانب التنويه بشأن ما اقسم به وهو يأتلف في المناسبة مع ما يوطأ به اليه ، ولذلك اخذ المفسرون بالبحث عن فوائد التين والزيتون ، وكادت تفوت بذلك المناسبة مع ما يتلوهما من تمام القسم «وطور سينين» ، وكان حريا ان يؤخذ من هذه الآية بمناسبتها لمكان يناسب ذكر الطور وهو من امكنة الوحي لمعرفة التين والزيتون معرفة اسمي مكان مقدسين بالوحي ، وهذا ما تنبه له بعض المفسرين (*)

(*) وقد ذكر طرفا من ذلك القاري ء المهاجر الروسي نزيل دمشق بعد الثورة البلشفية الشيخ محمد فريد العباسي في تفسيره بالتركية اطلعني على انموذج=

وعاد بعد القسم الى ماقد مر به في السور الآنفة قبل «الضحى» من تذكرة الانسان قائلا: «خلقنا الانسان في احسن تقويم * ثم رددناه اسفل سافلين» لتكذيبه بالدين «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» متسائلا في ختام السورة «أليس الله بأحكم الحاكمين» سؤالا فيه تقرير، فبين في ذلك الدعوة بعنوان من القول لا إفاضة فيه بما يلائم اسلوب الخطاب في بدء الدعوة خطوة خطوة ويتفق مع هذه السورة الموجزة، ومن بعد التين سورة العلق

العلق: سورة مستهلة بما يلائم سياق السور الآنفة من دعوته الانسان الذي أحسن الله خلقه الى الدين وهدايته ليجزى بعمله وخطاب الرسول عليه السلام في مثل ذلك في سورتي «الضحى» و«الانشراح» فهي سورة تخاطب الرسول قائلة «اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق» فثمة الوحي والامر به، وتبيان صلته بالله، وصلة الله بخلقه، وقد امتن سبحانه بما يميز الانسان من التعليم، باعتبار مناسبته للهداية

= له عربة وكان يعمل على تعريبه فقال بانه مكان مقدس في ديارهم ذكره في تفسيره وهو علامة يتتبع الآثار العلمية والاكتشافات المصرية ويوفق بين ذلك ادق التوفيق وبين ما ورد في القرآن، وما كان يظن لمثله (غربة وفقراً في غربته وصبرا على فقرة) ان ينقطع لهذا التتبع حتى كان لا يرى امام صندوق صغير لبيع المطورات يتجر به الا قارئا للكتاب او ممسكا بقلم اشتراها بما امسك به عن طعامه على شدة فقره، وكان اجداده كما قال من وفود العباسيين الى روسيا فهو عربي الارومة، وله في دياره شجرة النسب العربي.

لب لبابه ، اذ « علم الانسان ما لم يعلم » ولكن الانسان رغم ذلك ليطغى حين تفيض عليه النعم فيستغني بها ناسيا ان مرجعه كما خلق الى ربه، ثم خص من بني الانسان الطغاة أبا جهل اذ جهل بقوله :(لو رأيت محمدا ساجداً لوطئت عنقه)، ليحول دون تقربه عليه السلام من ربه فحماه الله منه ، كأنما لا يكفي ابا جهل بعده وصدوره ، وختم السورة بانذاره بعقاب اليم يذله لا يملك معه حولا ولا طولا، مبينا ان على الرسول ان يعبد ربه بخشيته ساجداً اليه متقربا منه ، ففي هذه السورة تصوير لما كان الرسول عليه في بدء دعوته وما لقيه من قومه ، وما كان يدعو اليه موجها النفوس الى معنى الخلق ، وما تميز الانسان به ، وما فيه سعادته وهدايته ، بصلته بربه وتقربه منه ،وان مستهل هذه السورة بآياتها الخمس هو اول ما نزل على الرسول عليه السلام من الوحي على اصح الاقوال اذ كان متحنثا يتعبد ربه منفردا في غار حراء . ومن بعد العلق سورة القدر .

القدر : سورة تناسب الوحي وما انزل فيه وما انتهت السورة الآنفة اليه بذكر ليلة القدر بفضائلها المستهلة بان نزل القرآن فيها وذلك لاول مرة ، وقيل هي الليلة التي نزل فيها القرآن الى سماء الدنيا اولا ثم تتابعت آياته حسب الظروف الداعية منجما، وقيل نزل القرآن بها ذاكرا لها منوهاً بقدرها، فهي ليلة تجل واقتراب من الله وهي

على جميع الوجوه ظاهرة المناسبة للسورة الآنفة، ووحدة الموضوع فيها وفي امثالها من قصار السور خاصة واضحة بينة ومن بعد القدر سورة البينة.

البينة: سورة ابانت ان الوحي بصحف مطهرة فيها بينة للكافرين والمشركين، ذاكرة بعد ذلك من حالها واصراوهما (بعد قيام البينة ومجافاتها الدين الاقوم) ما يعاقبون عليه بينما يثاب «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وهم «خير البرية» بجنات ورضوان خصها الله «لمن خشي ربه» فكان الوصف بذلك متمما للمعاني التي مرت بالسورة الانفة مؤيدا لها وقد دعت للعبادة والصلاة ولا سيما سورة «العلق» وفي ذلك من وضوح التلازم بين السور واتمام معاني بعضها بعضا على نسق يجري الى غايته بينة من الهداية وينسجم في وحدة من المقاصد ومن بعد البينة سورة الزلزال.

الزلزال: تذكر يوم الاخرة وبعثه وماوراءه من جزاء «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» فهي سورة تسمت بالزلزال وهو ابرز مظهر من مظاهر القيامة التي تحذر منها باعتبارها دار الجزاء على العمل ولكنها في موضوعها سورة العمل، وهكذا تجد المناسبات بين التسمية وموضوع السورة ومن بعد الزلزال سورة العاديات.

العاديات: استهلت بقسم بجهد الانسان الجاهد في دنياه بروعة تلائم ما تريد تفتيح الاذهان له من ذلك، فهي خيل تعدو في مواقف القتال منذ الصباح تمهد لهذا الجهد الجاهد وتمر من ذلك الى سعي الانسان ونتائجه وقد اوضحت من ذلك ان الانسان كفور بنعم ربه مفرط في حبه الخير لنفسه كأنه لا يعلم ان البعث من ورائه يحاسب فيه حتى على طويته التي لا تخفى على ربه، كأنما تنبه الانسان الى ثمرة سعيه وكده بعد ان دعته السورة الانفة الى العمل موزونا بذرة ومن بعد الزلزال سورة القارعة.

القارعة: تتحدث عن بعث الانسان وحسابه ومصيره الى عيشة راضية او نار حامية بين مفصل الجزاء بين نتيجتين بعد ان مهدت السورة الآنفة لذلك ومن بعد القارعة سورة التكاثر.

التكاثر: سورة ذكرت ما يلهي الانسان عن ربه وعلو حياته فيشغله حتى يفاجأ بحسابه عما تنعم به في دنياه فيرى الجحيم من دونه حقا يقينا عينا مشاهدة، فهي سورة توضح علة الغفلة في الانسان التي توجب هلكته، وهي بذلك تتمم مقاصد السور الانفة بتسلسل وانسجام ومن بعدها سورة العصر.

العصر: سورة تذكر الانسان انه في خسر «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» فهي عنوان

حياة الانسان وما يلقاه في دنياه وآخرته ليحذر مايخشاه من خسر وهلاكه فيعمل صالحا متحليا باخلاقه صابرا داعيا متضامنا متواصيا بالحق والصبر لتكون له النجاة وحسن الخاتمة ، ومن بعد العصر سورة الهمزة.

الهمزة : اتت على فئة من الناس من ذوي الخسر (الذين ذكرتهم السورة الآنفة) - وهم الطعانون الهازئون المغترون بوفرة مالهم ذاكراً عقابهم وقد نزلت بسببها الخاص في (الاخنس بن شريق) وقيل في (الوليد بن المغيرة) لما كانا يأتيانه من هزؤ بالرسول (ص) ودعوته فيغتابانه ليصدا عن سبيل الله وذلك من الخسران الذي مرت به سورة العصر مثل الويل والثبور ، ومن بعد الهمزة سورة الفيل .

الفيل : سورة هلاك ذكرت قصة « ابرهة » اذ جاء يريد هدم الكعبة فافناه الله وجيشه ، وفي هذا تأييد للانذار الذي انطوت عليه السورة الآنفة وجاءت ببرهان من التاريخ العربي فيما تنذر به امثال من مرت بهم هذه السورة الآنفة ، ومن بعدها سورة قريش

قريش من العرب عشيرة الرسول نفسه ، وقد عادت هذه السورة كرة ثانية للتذكرة فخصتهم بذكر نعم الله فيهم داعية لعبادته بعد الترهيب الذي أتت على ذكره السورة الآنفة ، ومن بعدها سورة الماعون

الماعون سورة ذكرت أخلاق الكافرين المكذبين بالدين المنافقين الذين لا يعبدون الله بحقه أولئك ألهاهم التكاثر فبخلوا وهؤلاء

تظاهروا بالعبادة فأساؤا مرائين وهم في حقيقة اخلاقهم بخلاء كأولئك حتى ليمنعون الماعون من العارية وقضاء حاجة الجار ، وفي ذلك تصوير يتمم مراحل التذكير والتعذير مما مرت به السور الآنفة على ضوء الاخلاق العربية التي تحب الصراحة والكرم. ومن بعد الماعون سورة الكوثر

الكوثر : سورة تذكر نعم الله على رسوله الاعظم حتى الجنة في معرض الرد على من قال -(بعد وفاة ابنه ابرهيم)- بان الرسول ابتر سينتهي شأنه بانتهاء حياته ، وفيها من اخلاق الرسول عليه السلام مافيها بدعوة الى الاستمرار على البذل فينحر خيار المال عند العرب (البدن) ويطعمها للمحاويج خلافاً لمن يدعهم طارداً لهم ويمنع الماعون عنهم، فهي بهذا تقابل السورة الآنفة بعود الى الرسول عليه السلام وما تميز به من خلق رفيع وما امتن الله به عليه جزاء في الدنيا قبل الآخرة توكيداً لفضله وتعظيما . والكافرون، تأتي بعد هذه السورة

الكافرون : سورة باسم هذه الفئة ترد عليهم طلبهم من الرسول ان يعبد إلههم سنة فيعبدوا معه خالقهم -الله- سنة اخرى من نوع المماكسة في العبادة والمقايضة فيها ، مما يدل على سوء فهمهم لها ، فهي رد على سوء العمل الذي يحذر الرسول عليه السلام منه ، ومن بعدها النصر

النصر : سورة وعد بفتح مكة بلد الوثنية التي الزمت الرسول عليه السلام بالهجرة منها هو وصحبه لفرط ماآذتهم وحالت دون دعوتهم لدينهم واقامتهم لشمائرهم، هذا الى مقابلة الفتح بما يستحق من تسبيح الله واستغفاره والانابة اليه ، وذلك من الاخلاق المؤمنة التي تقابل حال الكافرين بمصيرهم من القهر في الدنيا قبل الاخرة توكيدا لنعم الله على رسوله التي مرت بها « الكوثر». ومن بعد النصر سورة اللهب

اللهب سورة تذكر أبا لهب وزوجه بموقفهما من الرسول عليه السلام في دعوته إذ قال للرسول: (تبا لك! ألهذا دعوتنا؟) بعد أن اجتمع لدعوة الرسول ذووا قرابته قياما بأمر ربه بقوله تعالى «وأنذر عشيرتك الاقربين» فكان الرد على ابي لهب بما سيلقاه في الآخرة وهو انموذج للكافرين الذين سيغلبون بالنصر مما مهدت له السورتان الآنفتان ، ومن بعدها سورة الاخلاص

الاخلاص : اتت على توحيد الله جوابا لما سألت قريش الرسول عنه اذ سألت عن ربه ووصفه ونسبه . فهي سورة العقيدة من الدعوة التي دعا الرسول اليها. ومن بعد الاخلاص المعوذتان

المعوذتان من شر ما خلق وما يأتيه الناس من شر وحسد وما يأتيه شيطان الانس والجن من وسوسة تدعو الى ضلال ، فهما

سورتان تعلمان الرسول ومن ورائه قومه الاستعاذة من الشر وأهله وما هم عليه في هذه الحياة اعلانا لما لقيه الرسول وصحبه وما يلقاه الاتباع حين يدعون للحق دعوة الاخلاص ، ولأمر ما كانت خاتمة القرآن « المعوذتان » وكانت تستفتح التلاوة للسور بل ولجميع القرآن بالاستعاذة « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » فهي بذلك تصل البدء بالخاتمة من القرآن وتحوط الدعوة دعوة الحق والهدى من الشيطان ومكائده وضلالاته هو ومن على خطته من اهل الشر حياطة الاستعاذة بما يطهر الانفس من ارجاسها .

* * *

هذه موضوعات السور موجزة توضح مناسباتها بآياتها ووحدة الموضوعات فيها ، ولو جردنا النظر عن نظرته الهادية لنرى الموضوعات على ضوء البحوث بنظرة علمية عقلية صرفة بغض النظر عن اسباب النزول ، واسلوب الخطاب ومن توجه القول اليه ؛ فاننا حين ذاك نجد مجالا لتصنيف آخر كالذي رآه بعض المستشرقين في تصنيف اغراض القرآن فاورد البحوث الفلسفية بالمعتقدات فالاجتماعية باقاصيص الانبياء فالاقتصاد به وهلم جرا ، وقد غفل عن تلك المعاني الانسانية الهادية والاسباب الداعية من قد حسب ان وراء ترتيب السور والآيات ترتيبا ، ووراء التوقيف بما علم الرسول عليه السلام كتاب وحيه توفيقا ، فاللهم علمنا القرآن وزدنا بصيرة ، واجعلنا للمتقين اماما ، والحمد لله رب العالمين .

صفحة	سورة	صفحة	سورة	صفحة	سورة	صفحة	سورة
٦	الفاتحة	١١٤	العنكبوت	١٧٨	الحديد	٢١٣	الطارق
١٢	البقرة	١١٧	الروم	١٨١	المجادلة	٢١٤	الاعلى
١٧	آل عمران	١١٩	لقمان	١٨٣	الحشر	٢١٥	الغاشية
٢٠	النساء	١٢١	السجدة	١٨٤	الممتحنة	٢١٦	الفجر
٢٢	المائدة	١٢٣	الاحزاب	١٨٥	الصف	٢١٧	البلد
٢٥	الانعام	١٢٧	سبأ	١٨٦	الجمعة	٢١٨	الشمس
٣١	الاعراف	١٣٠	الفاطر	١٨٧	المنافقون	٢١٩	الليل
٣٦	الانفال	١٣٢	يس	١٨٨	التغابن	٢٢٠	الضحى
٤٠	التوبة	١٣٦	الصافات	١٩٠	الطلاق	٢٢٠	الانشراح
٤٣	يونس	١٣٨	ص	١٩١	التحريم	٢٢١	التين
٤٨	هود	١٤٠	الزمر	١٩٣	الملك	٢٢٢	العلق
٥٢	يوسف	١٤٧	المؤمن	١٩٤	القلم	٢٢٣	القدر
٥٤	الرعد	١٥٠	فصلت	١٩٥	الحاقة	٢٢٤	البينة
٥٥	ابراهيم	١٥٢	الشورى	١٩٦	المعارج	٢٢٥	الزلزال
٥٨	الحجر	١٥٤	الزخرف	١٩٧	نوح	٢٢٥	العاديات
٦١	النحل	١٥٨	الدخان	»	الجن	٢٢٦	القارعة
٧٢	الاسراء	١٥٩	الجاثية	١٩٨	المزمل	»	التكاثر
٨٣	الكهف	١٦١	الاحقاف	١٩٩	المدثر	»	العصر
٨٧	مريم	١٦٢	محمد	٢٠٠	القيامة	٢٢٦	الهمزة
٩٠	طه *	١٦٥	الفتح	٢٠٢	الدهر	٢٢٧	الفيل
٩٢	الانبياء	١٦٧	الحجرات	٢٠٤	المرسلات	»	قريش
٩٤	الحج	١٦٨	ق	٢٠٥	عم	»	الماعون
٩٨	المؤمنون	١٧١	الذاريات	٢٠٥	والنازعات	٢٢٧	الكوثر
١٠١	النور	١٧٢	الطور	٢٠٧	عبس	٢٢٨	الكافرون
١٠٦	الفرقان	١٧٣	النجم	٢٠٨	التكوير	٢٢٨	النصر
١٠٨	الشعراء	١٧٥	القمر	٢٠٩	الانفطار	٢٢٩	تبت
١١٠	النمل	١٧٧	الرحمن	٢١٠	المطففين	»	الاخلاص
١١٢	القصص	١٧٨	الواقعه	٢١١	الانشقاق	»	الفلق
				٢١٢	البروج	»	الناس

* وردت خطأ (طه)